سلسلة أوراق من التاريخ

٩

المصادفة في التاريخ

شاكر مصطفى



المصادفة في التاريخ
شاكر مصطفى

ريــع الــدار
لهيئة مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية



دمشق أوتوستراد المزة ص.ب: ١٦٠٣٥ ــ برقياً طلاسدار

هاتف: ٦٦١٨٩٦١ــ٦٦١٨٠١٣ تلفاكس: ٦٦١٨٨٢٠ تلكس: ٤١٢٠٥٠

المصادفة في التاريخ

الطبعة الأولى ١٩٩٦

سلسلة أوراق من التاريخ

٩

المصادفة في التّاريخ

شاكر مصطفى

المصادفة في التاريخ/شاكر مصطفى. ــ دمشق: دار طلاس، ١٩٩٦. ــ
١١٢ص؛ ٢٠سم. ــ (سلسلة أوراق من التاريخ؛ ٩).

١ ــ ٩٠٢ م ص ط م ٢ ــ العنوان ٣ ــ مصطفى ٤ ــ السلسلة.
مكتبة الأسد

رقم الإيداع ١٩٩٦/١/٤٦ رقم الإصدار ٦٩٦

رقم: ٢٥٠٧٥
تاريخ: ١٩٩٥/٢/٥

كلمة أولى

هذا الكتاب هو بعض من حوارات عديدة مع صاحبه الذي لا يمل السؤال ولا الجدل. هل ترى وجودنا كله على هذه الأرض مجرد مصادفة سيئة سببها جدنا المحترم آدم وتفاحته؟ هل التاريخ بدوره سلسلة مصادفات تغير مجراه كل لحظة على هواها ذات اليمين وذات الشمال. أم هو قوانين إلهية عميقة مرسومة نلتقي فيها على ميعاد دقيق ونفترق على قدر مقدور. وإنما نسمي بعضها بالمصادفة لأننا نجهل تلك القوانين؟

ثم في الأحداث كبراها وصغراها، دون شك، منطق يربطها بعضها ببعض. لكن ثم فيها، في الوقت نفسه، نافذة مفتوحة لريح غير منتظرة قد تأتي أو لا تأتي. فإن أتت خلطت الأوراق وأوقعت الاضطراب في نظام الأشياء. فما مكان هذه من أولئك؟ وكيف تلتوي رجل الغزال فجأة وهو هارب فإذا هو فريسة في فم الفهد؟ وكيف يجري أحدنا مسرعاً للحاق بموعد هام فإذا بقرميدة تقع على غير انتظار فوق رأسه فإذا هو في المستشفى. فلا هو لحق موعداً ولا هو أدرك السلامة! وكيف يزلق الحصان بالقائد في المعركة فيهوي، ويهرب قومه وهو المنتصر فيتحول النصر هزيمة تغير مجرى التاريخ؟

أسئلة محيرة. وتزداد الحيرة بها لو نظرنا إلى دورها في

الأحداث الكبرى في التاريخ، وإلى ظلها الممدود فوق تلك الأحداث. وفي هذه الصفحات شيء من ذلك قد يترك على جبينك الكثير من إشارات الاستفهام حول التاريخ وحول الزعم بحتميته القدرية...

أم تراك مع الكثيرين الذي لا تخطر لهم هذه الأسئلة في بال؟

شاكر

هذه المصادفة المحيرة[1]

ما أكثر ما تساءلت أنتَ ورددت أنا، ونحن ننهي قصة غريبة وقعت، أو خبراً مدّ لسانه للمنطق، أو مفارقةً ليست بذات تفسير:

ــ ماذا تسمي هذا؟ المصادفة؟ القدر؟ الحظ؟ المعجزة...

ونترك السؤال يقرع في النهاية كالأجراس في الأعماق، دون أن ندري لمن تقرع الأجراس؟ فالجواب يمتد على أبعاد تتراوح ما بين العجب الأصم العابر، وبين أخفى ظلمات الميتافيزيك. أيَّ كلمة استخدمت فهي الكلمة ــ اللغز التي نضعها أحياناً في عقد الحوادث، أو عند انقلاب الخط المنطقي للقصة، لعلها تكون التفسير للعقدة أو الانقلاب وما هي بالتفسير ولا شبهه ولكنها أشبه بـ (س) في المعادلة الرياضية، رمز للمجهول. المصادفة هي الاسم الذي نطلقه على غرائب المفارقات حين يعجزنا تفسير الغرائب، ويضرب المنطق رأسه في الحائط!.. والمصادفات نفسها من التنوع والكثرة بحيث تقبل الشرب من كل الينابيع!.. وهي من الإيقاع والمفاجأة بحيث تحسب أنها، أمام قوانين الحياة، هي القانون العبثي المنفلت من نظام الكون ليقول: باطل الأباطيل كل تخطيط، كل قانون، كل شيء.

«وتقدرون فتضحك الأقدار» ... والفلك المحرك دائر تقفون

هل ترى المصادفة زلزلة في نظام الأشياء لخلق نظام جديد؟ كسر للمنطق لصياغة منطق آخر؟ جناح عصفور استوائي يخرق الجو، ثم يغيب

---

(١) محاضرة ألقيت في جامعة قطر في مارس ١٩٩٢.

قبيل العواصف ؟. يد مجهولة تلعب متى شاءت بمقصات السكة ، وتغير طريق القطار ، ومصير من فيه ؟ ...

أم ترى المصادفة حصاناً أهوج يأتي على غير انتظار ؟ وينطلق على غير انتظار ، وبين مجيء وانطلاق ينسج ، كمكوك الأنوال نصف حياة الناس ونصف قصص الروائيين ، ونصف ما في التاريخ الإنساني من الأحداث ؟ ... هل هي بنت الحظ ؟ . هل هي جارية عمياء مجنونة القدم والأيدي تربط هذا الخيط بذاك وتقطع هذا لتصله بذاك دون نظام ؟. أم ترى الصدفة هي القدر كتب للناس على حساب وحكمة ، في اللوح المحفوظ ليقضي الله أمراً كان مفعولا ... وإن كان يفوتنا منه الحساب والحكمة كما يفوت عالمَ الذر إدراك الوصول إلى القمر والمريخ ...

أم ترى المصادفة هي الاسم الآخر لقوانين الكون الإلهية التي نجهل . والقانون صارم أبدي عميق ، ونحن في أصابعه دمى وأرقام تصطدم وتفترق على حتمية لا فكاك منها ، وتنظيم من التنظيم ، وإن كنا من كل ذلك على مثل الجهل القديم لنا بالوجود والمصير ... وعلى مثل قول المعري الضرير :

وبصير الأقوام مثلي أعمى   فهلموا في حندس نتصادم

هل تراني أقصد إلى فلسفة المصادفات أو الأقدار والحظوظ ؟ ما أنا من ذاك الآن في شيء فما في وسع أحد أن يغوص في نظام الكون ويستبين نسيج الأقدار . وما في خاطري أيضاً أن أثير ذكريات المصادفات والحظوظ التي ركضت كالشهب السوداء أو الذهبية على طريقك ، أو نامت عند عتبة جارك . إنها تنتثر في حياتك وحياتي ذات اليمين وذات الشمال ، أرأيت الحب يبذر ملء اليدين في ندى الحقول ؟ المصادفات كالخبز ليس في البشر من لم يعرفه ، إن لم يأكل حتى التخمة منه ! افتح حديث مصادفة من المصادفات وانظر كيف يكر الخيط بالغرائب والقصص المثير ...

كم من صفقة؟ من زواج؟ من قصة حب؟ من اختراع؟ من مأساة؟ يمكن أن يتراكض وراء جفنيك لو أغمضتهما تستعرض المصادفات التي تعرف، وتلون الحظوظ.

أغمض عينيك إن شئت واستعرض أولاً المصادفات التي مرت بك أنت.. إنها آلاف.. ومع ذلك دعني أعاونك في بعضها: أخص ما يخصك ويشكل كيانك المميز كله هل كان إلّا مصادفة؟ البلد الذي ولدت فيه هل اخترته؟ الجماعة التي أنت منها هل كانت لك يد في انتقائها. أسرتك التي نمّتك. والداك. تكوينك الجسدي. اسمك. طولك. لغتك. عيناك. مزيجك النفسي... كل هذا الذي يحدد ذاتك الخاصة، ويفرقك عن كل بني البشر هل كان إلا بقدرٍ معجز، في الغيب كنهه ومداه؟ ألم تأت إلى الدنيا مصادفة بعد أن قتلت عشرة ملايين من إخوتك وأنت بعد حوين؟. وجئت فوجدت مصادفة كل ذلك أمامك مرة واحدة؟ ضع أمام أي واحد من مقومات كيانك كلمة: لو. اجعلها تدخل دنيا اللوات وقل لي: لو تغيرت هذه أو تلك فهل كنت أنت أنت؟ هل كنت؟ هل. أريد إلى القول: إن الإنسان وإن التاريخ كله هو ألعوبة المصادفة؟ لست أدري.

ثم أغمض عينيك كرة أخرى وتذكر:

ذلك الذي أصر على ركوب الطائرة فلم يوفق، ثم سمع انفجارها في تلك الرحلة؛ والذي كان مصادفة في الطريق فمرت مظاهرة قاومها الشرط فإذا به في السجن؛ والذي اتفق أن كان في زيارة عابرة فعقد صفقة تربح الملايين؛ والذي ذهب يشتري حاجة وعاد ليجد المنزل حطاماً وجدراناً منهارة؛ والطفل الذي اندفع من داره لحظة فإذا بسيارة تصدمه فهو كسيح بقية العمر؛ والذي كان مصراً أن يكون طبيباً فإذا بقلم المسجل يكتب له دراسة الحقوق. والذي.. والذي.. كل هؤلاء حجارة صغيرة لا يترك سقوطها في صفحة البحيرة سوى دوائر صغيرة تتقاطع لحظات ثم ما تلبث أن تضمحل،

وتضمحل، وتضيع... حظوظي وحظوظُك محدودة الآثار في مداي ومداك، في مصيري ومصيرك. في أشبارٍ من الأطوال وفي أمتار من الأرض أو عدد من العيال، أو رقم من المال، أو درجة من المقام في الناس.

لعبة المصادفات تتحول رعباً ومصائر ملايين حين تمسي زلازل وانهيارات جبال، وركض قِمم إلى الهاوية، حين تتسلل بلعبها العابث وغمزة العين إلى الأحداث الكبرى! حين تكتب التاريخ وترقص على سطوره. وكما أن خطيئة الكبير هي كبيرة الخطايا كذلك عبث الحظ... إذا عابث الكبار قرر كبار المصائر. كلما اتسع المسرح الذي تلعب عليه المصادفة كلما انداحت دوائرها الزلزالية أبعد فأبعد فأبعد... «بحر الظلمات الأبدي» الذي يسمونه التاريخ كل مياهه والصخور والطحالب والكهوف الظلماء مدروزة بالمصادفات... بعضها مدمِّر وبعضها بطعم القرنفل والمر، وبعضٌ يرش الأحزان زهراً أسود على الملايين، وبعضٌ سيول من الفرح تنفجر في الدروب!... الكاشف السحري للعب الأقدار في التاريخ كلمة، كلمة من حرفين: «لو!» قلها إذن تهتز الأحداث من مواضعها الخالدة. تتعوج وتموج كما لو هززت صفحة الماء الراكد. وكما أنك لو أدخلت قافلة «اللوات» على حياتك لما كنت أنت أنت، فكذلك التاريخ كله. أدخله دنيا «اللوات» ثم انظر اللعبة الكبرى... واحذف المصادفات إن شئت عن الأسطر العتيقة أو الطرية. أزحها هوناً ما عن الخطوط التي ارتسمت عليها وتصور أي سبل أخرى كان يمكن أن يأخذها التاريخ؟ وأي تاريخ كان سيكتب؟

ولقد عانيت التاريخ سنين بعد سنين. وما من مرة إلا وجدت جملة «واتفق أن».. «واتفق أن» مزروعة في الأحداث. وما من مرة إلا وكان حديث المصادفة يركض أمامي في دهاليز التاريخ أو وراء الأبواب.

إنك تلقاها، في كل عطفة منه، تحاول أن تجذب العنان هنا أو أن تلغي

المنطق هناك... هل قلت تحاول؟ لا بل تجذب العنان فعلاً وتلغي منطق الأشياء... إنها كثيراً ما تقف على الطريق بعين كعين القرصان العوراء أو في عبث الأطفال البريء لتقتل أو تخلق الأحداث، أو تترك الدمار أو تفتح أسطورة الحب!...

ونسيج التاريخ مزروع بالمصادفات. إنها في ردائه: هي اللحمة تارة وهي السدى تارة أخرى...

فإذا قلبت معكم في هذا الحديث أوراق التاريخ عن بعض المصادفات فيه فهل تراني أريد وضع القوانين الكونية كلها في الأرجوحة؟ أم أريد إلى تقييدها بالنظام الكوني الأعلى؟ لست أدري... ولعله يكفيني أن أطلق في ظنونكم إشارة الاستفهام لتذهب في الجباه سرباً...

لن أقف بكم عند مصائر الأفراد. هرودوت أبو التاريخ ــ فيما يزعمون ــ سقط في البحر، وهو شاب هارب من الأناضول ليطوِّف في الأرض، وكاد يغرق وأنقذه الملاحون... لو غرق هرودوت لما كتب تاريخه الأقدم، وكان على التاريخ أن يبحث عن أب آخر... كولومبس مكتشف أمريكا غرق في المحيط، وأنقذته صخرة صغيرة تماسكت صدفة عند يديه، فظل يؤمن أن العناية الإلهية ترعاه ليكتشف طريق الهند الغربي. لو غرق فعلاً لكان مجهولاً من ملايين المجاهيل التي تغرق وكان على أمريكا أن تنتظر مكتشفاً آخر... ومحمد علي باشا صاحب مصر غرق في البحر أيضاً ذات مرة وأنقذته أيدي البحارة في الرمق الأخير، ليكون جد السلالة الملكية بمصر ومدمر المماليك، وصاحب النهضة، ومحارب السودان والجزيرة والشام. لو غرق، أما كان تاريخ مصر الحديث كله وتاريخ هذا الشرق العربي معه غير الذي كان؟.

ولن أذكر الكثير من المكتشفات العلمية التي تم معظمها في مصادفة سعيدة. من أبرزها قفزة أرخميدس من حوض الماء الذي كان يستحم فيه ليخرج عارياً إلى الشارع وهو يصيح: (أوريكا)! وجدتها... وجدتها!..

وقد وجد بالفعل، وهو يغطس ويطفو في الماء، حل مشكلة التاج الذهبي الذي أراد منه الملك أن يكشف أمانة الصائغ في صوغه، وهل استخدم كل الذهب الذي أخذه أم مزجه بالفضة؟..

وكانت (أوريكا) هي قانون الوزن النوعي...

ومثل ذلك كانت التفاحة التي سقطت أمام نيوتون، صدفة، فقفز بدلاً منها إلى خاطره قانون الجاذبية. ومثل ذلك أيضاً وأيضاً كشف البخار وقصة المكروب وقصة البنسلين...

لن أذكر هذا كله. فقد يكون له من مقدمات التأمل والتفكير ما يبعده عن أن يكون مجرد مصادفة... ولكن تعالوا معاً نقلب صفحات التاريخ عن تلك المصادفات المطلقة التي غيرت في مسيرة التاريخ وفي المصائر...

أستنجد أولاً بمنسياتكم من أحداث الأيام الإسلامية الأولى لأذكر ببعض المصادفات فيها:

أواخر عهد عثمان تلبد الجو السياسي ضد الخليفة. فقد أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها، وأبت السخائم والأطماع المحرومة إلا أن تسيل في الدروب. تزعم القراء المعارضة في الأمصار، وتكاتبوا في ذلك، ثم تواعدت زعامات من المعارضين في مصر والبصرة والكوفة أن تلتقي على عثمان في المدينة تحاسبه.. وقد فعلت. كان ذلك سنة ٦٥٥ م وحين تجمعوا عليه أرضاهم ووعدهم، بينما رفض الصحابة المرشحون للخلافة مسايرتهم فرحل أغلبهم عن المدينة عائدين...

وحدثت المصادفة. وقع عرب مصر في بعض الطريق على نَجَّابٍ يحاول أن يسبقهم، فلما فتشوه وجدوا معه كتاباً من عثمان إلى عامله في مصر يأمره بجلد المتمردين، والمُثْلة بهم، وطول الحبس. فعادوا إلى المدينة مسرعين يجابهون الخليفة بالكتاب، ثم يحاصرونه في بيته، ويقطعون عنه القوت والماء، ثم

يشدخون هامته بالعمد فوق مصحفه ... كان أول خليفة في الإسلام يقتل بيد الرعية .... وهو صهر النبي ، وذو النورين ، والشيخ ذو الاثنين والثمانين سنة !

ويتولى الخلافة علي بن أبي طالب ، ويثور عليه بالتعاون مع عمرو بن العاص ، معاوية بن أبي سفيان ، رافعاً قميص عثمان ، وتكون صفين . ثم يكون التحكيم . ثم خروج الخوارج . ويتآمر بعض هؤلاء الغاضبين الثائرين المؤامرة الثلاثية المعروفة ضد الكبار الثلاثة : علي ومعاوية وعمرو بن العاص ، ويتواعدون ليلة السابع عشر من رمضان سنة أربعين للهجرة (سنة ٦٦٠م) للتنفيذ بالسيوف المسمومة . وتقع المصادفة الغريبة التي غيرت مجرى التاريخ الإسلامي :

يمضي أولهم عبد الرحمن بن ملجم إلى علي في الكوفة فيقعد له في الموعد المضروب ، فيصيب منه المقتل . ويمضي الثاني : البرك بن عبد الله إلى معاوية في دمشق ويشد عليه بالسيف فلا يصيبه بأكثر من جرح سطحي في إليته . ويجلس الثالث لخصمه في غلس الصبح ويقتله . ولكنه يفاجأ بأن يَمْثُلَ به الحرس أمام عمرو بن العاص . ويتبين أنه إنما قتل خارجة بن أبي حبيبة ، صاحبَ الشرطة الذي خرج يصلي بالناس لوعكة ألمت بعمرو في ذلك الصباح بالذات ، فصاح : أردت عمرواً وأراد الله خارجة !!.

ثلاث ضربات قدرية : ضربة قاتلة وأخريان كانت بمجرد المصادفة فاشلتان ، لتنهي خلافة ، ولتمهد لآخر ولتقتل ثالثاً لا علاقة له بالأمر ولتوجه التاريخ الإسلامي الوجهة التي نعرف بين شيعة وأمويين وليبدأ رحيل علي وأولاده الرحيل المأسوي المعارض في الزمن مع رحيل الدموع وغصة الخلافة حتى اليوم !.

مصادفة ثالثة في ذلك العصر نفسه ...

في سنة ٦٧٣م (بعد فتح الشام ومصر بخمس وثلاثين سنة فقط) شهد بحر إيجة ، لأول مرة ، عمارة عربية ضخمة تعبره إلى الشمال . كانت ثمانمائة مركب بين ثقيل وخفيف تتحرك على وجه الجلد ، وتتجه عبر مضيق الدردنيل

إلى مياه بحر مرمره. الخليفة في الشام معاوية بن أبي سفيان هو الذي أمر بذلك، بعد أن انتصر الأسطول العربي في معركة ذات الصواري، وتسلط التسلط العنيف على شواطئ بحر إيجة، فاستولى على رودس، وهاجم كريت، وتراجعت أمامه السفن الرومية في عقر شواطئها... لقد قرر الخليفة الاستيلاء على القسطنطينية. هي قاعدة الروم الكبرى فلماذا لا يكون مصيرها مصير المدائن؟.

كان ولي العهد يزيد على أحد مراكب القتال، ومع القوات البحرية التي اتخذت من إحدى الجزر في بحر مرمرة قاعدة للقتال والإغارة. وضربت الحصار على العاصمة الرومية. وامتد الحصار سبع سنوات متصلة. القرن الذهبي والبوسفور والشواطئ كانت في الربيع والصيف من كل سنة ميادين مفتوحة للأشرعة العربية والسهام وحجارة المجانيق. ويعود المحاربون إلى معسكراتهم مع هبوب الشتاء، وتياراته العاتية. كانت القسطنطينية تعاني أضعف أيامها..

في آخر السنوات السبع فوجئت السفن العربية بقذائف نارية لا عهد للحرب بها، ولا للسفن. كانت المادة التي تسبقها تلتصق بخشب السفينة سريعة الالتهاب بالنار اللاحقة، عسيرة الإطفاء... ودب الذعر في الناس مع دمار السفن وتصاعد اللهب على صفحة المياه بكل مكان... النار الإغريقية النار الإغريقية!

التركيب الكيماوي السري للمادة النارية يقولون إنه استخدم ذات مرة سنة ٥١٦، قبل ١٦٠ سنة من هذا الحصار. ولم تكن القسطنطينية تعرف سره. بالمصادفة أعطاها هذا السر رجل من أهل الشام اسمه غاللينيكوس. بعد أن أدخل عليه التحسين والفاعلية. واستخدمته المجانيق الرومية لأول مرة للخلاص من السفن المحاصرة. وكانت النتيجة أن تشتت شملها وأبحر ما بقي في ذعر واضطراب نحو بحر إيجة. ثم قفلت راجعة في ظروف بحرية مجنونة

العواصف دمرتها على الطريق ... فلم ينج منها إلا أعداد محدودة من الأشرعة تحمل سواد الدخان !

أهذا كل ما كان من نتائج تلك المصادفة ؟ إنه أهون النتائج .

النتيجة الأخطر أن فرصة فتح القسطنطينية ، وإلغاء الدولة البيزنطية ، ودخول الإسلام إلى أوروبا عبر هذا الممر القريب بين آسيا الصغرى والبلقان ، كل هذا قد تأخر بعد ذلك حوالي ثمانمائة سنة . وامتد عمر الدولة البيزنطية والروم حتى سنة ١٤٥٣ (والفتح العثماني لها أيام محمد الفاتح) . ودفع العرب المسلمون ثمن تلك المصادفة ثمانمائة سنة أخرى من القتال كان من بينها آلام الحروب الصليبية !! ..

وتنهار الدولة الأموية بعد قرابة قرن من الزمن أمام حقد العباسيين الأسود . وبدأت بدخول الأعلام السوداء سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م . وبدأ السيف يحصد الأمويين ... حتى في القبور !

فابسط النطع وضع السيف حتى   لا تـرى فوق ظهرهـا أمويـاً

ركض الإرهاب في الأزقة والقرى غولاً عاصفاً يبحث عن الضحايا ، ملوك الأمس الذاهب . كان عبد الرحمن حفيد هشام بن عبد الملك ، هو أحد الرؤوس المطلوبة ، ولو أن له من العمر عشرين سنة . وكان قد خرج بالمصادفة في صيد له حين دهم العباسيون منزله في فلسطين . فأخذوا أخاه وقتلوه . وفر تحت جنح الليل إلى قرية لأخته على الفرات . فدهمته الأعلام السوداء وهو في القرية ، قد أصابه أشد الرمد . فهرب مع أخ له صغير له ثلاث عشرة سنة . إلى الأجمات في أطراف القرية فلما لحقت بهما الخيل ألقيا بنفسيهما في الفرات . رُميا بالسهام فلم تصبهما . وُعدا بالأمان إن عادا ، فعاد أخوه ولم يعد . وضربت رقبة هذا الأخ في حين لحق عبد الرحمن بالشاطئ الآخر .

ووصل أفريقية بعد لأي وجهد . وكان واليها عبد الرحمن بن حبيب

الفهري يخشى على إمارته هناك من أولاد الملوك الهاربين . زعم له بعض المنجمين اليهود أن رجلاً بضفيرتين اسمه عبد الرحمن سوف يملك الأندلس ــ كذا يزعمون ــ فأطلق لنفسه ضفيرتين لعله ولعله . وفوجئ بأن للأمير الأموي اللاجئ عبد الرحمن ضفيرتين ، فحاول قتله وهرب عبد الرحمن إلى الأندلس ليكون أميرها الأول ويقيم الدولة الأموية فيصدف تلاقي قصصاً لا تنتهي من الأندلس . من بعضها ما نعرفه عن المرابطين .

والمرابطون اسم يدوي كنداء النسور في المغرب . كانوا شعلة جهاد وناراً تحرق ... دفاعهم الرائع عن الأندلس في عهد كل من يوسف بن تاشفين وابنه علي مسطر بالنور والعطر . أليس يوسف هو صاحب معركة الزلاقة التي سحق فيها قوات الفونسو السادس؟ وكانت إحدى المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام؟ مع ذلك فقد ثار عليهم الموحدون بزعامة المهدي بن تومرت وأزاحوهم عن الملك . عبد المؤمن بن علي أخرجهم من المغرب كله . ورأى تاشفين بن علي نفسه مضطراً أن يلجأ إلى معقل حصين من ثغر وهران في انتظار أن يأتيه المدد من محمد بن ميمون قائد أسطول المرية . طلب إليه أن يحضر لحمله مع رجاله إلى الأندلس . لعله يستنقذ بقية الإمبراطورية المرابطية هناك . لقد كانت له في الأندلس سمعة الأجراس المرنة ولطالما حمل الراية المرابطية في حملات متلاحقة ضد الإسبان ...

وقد نما لعلم الموحدين مكان وجود تاشفين بن علي فلما أرسلوا قواتهم وراءه استطاع الإفلات منهم في الوقت الذي وصل فيه ابن ميمون لنجدته على رأس أسطول المرية وتوجه تاشفين على حصان لم يخنه أبداً نحو الأسطول ... ووقعت المصادفة القاتلة : انهار الجرف الصخري الذي كان يجتازه تحت حوافر الجواد . فسقط مع فارسه تاشفين يتمزقان على الجرف والصخور ... وعاد ابن ميمون بمن لحق به من الجند لكن دون قائد ... وانتهى بذلك دور المرابطين في الأندلس أيضاً ! وتربعت بدلها دولة الموحدين في حكم الأندلس وفي الجهاد

والإغاثة أيضاً . بعد ذلك بقليل عبر السلطان يوسف بن عبد المؤمن خليفة الموحدين إلى الأندلس للجهاد ، وهل كان يستطيع غير ذلك ؟ واتجه على رأس قواته الضخمة إلى شنترين في غرب الأندلس (البرتغال اليوم) سنة ٥٨٠ (قبيل معركة حطين في المشرق بثلاث سنوات) . وضرب عليها الحصار . وفي احدى الليالي أمر الخليفة يوسف ابنه إسحق بالتوجه إلى أشبونة (لشبونة) وشن الغارات عليها ومنع الإمدادت عن شنترين فأساء الفهم وتوجه إلى أشبيلية على رأس قواته ... وجاءت المصادفة في إشاعة سرت في المعسكر الموحدي بأن أمير المؤمنين عزم على الرحيل ... « وكأن الشيطان صرخ في محلة المسلمين » فقد أخذت القوات ترحل واحدة بعد الأخرى تحت قيادة قوادها . وكانت المصادفة أكثر إذهالاً للمحاصرين في شنترين فما أصبح الصبح حتى كان الخليفة معسكراً وحده في عدد قليل من حاشيته وعبيده وحرسه فاندفع الإسبان يصرخون :

ـــ إلري إلري (أي الملك الملك) وقصدوه وتوصلوا إليه وطعنوه قبل أن يتسامع المنسحبون بما جرى ويعودوا لمطاردة الإسبان وإلجائهم مرة أخرى إلى شنترين !!

لكن الخليفة كان قد أصيب بجراح مميتة . وحمل جريحاً إلى أشبيلية فلم يلبث أن توفي !

وفي الفترة الصليبية ثم قصص عديدة حول صلاح الدين .

وصلاح الدين اسم يلمع كالنجم في التاريخ العربي الإسلامي والعالمي .

بعد حطين تحركت أوروبا كلُّها ضده . ملوكها الكبار ساروا بأنفسهم للصليبيات . فرضوا ضريبة باسم صلاح الدين على شعوبهم . الحملتان الفرنسية والإنكليزية عبرتا البحر على المراكب إلى الشام أما الجموع الألمانية بمئات الألوف فزحفت في البر . الإمبراطور فريدريك بربروسا العجوز سنة ١١٨٩ كان يقود الجموع التي عبرت الدردنيل ، وعبر معها الرعب إلى الشرق

الإسلامي حتى لقد أجلى صلاح الدين السكان وهدم أسوار عدد من المدن خوفاً من أن يتمركز الفرنجة فيها: طبرية. يافا. صيدا. صور. أرسوف. جبيل. قيسارية. وكتب ابن الأثير، المؤرخ الذي عاصرها: «لما وصلت الأخبار بوصول ملك الألمان أيقنا أنه ليس لنا بالشام مقام». وزاد الرعب حين اتفق هذا الملك مع سلاجقة الروم أن يهادنوه ويكونوا أدلاءه حتى الشام...

ووقعت فجأة المصادفة المثيرة. غرق فريدريك بربروسا وهو يستحم في نهر صغير بكيليكيا، وأفلت نظام الجيش الألماني الضخم، وعجز ابنه عن السيطرة فتفرق ونهبت أدواته. ونجا الشرق الإسلامي من طرف الكماشة البرية التي كانت ستطبق عليه ليتفرغ صلاح الدين للحملة القادمة من البحر وكتب ابن الأثير يقول: «لولا أن الله تعالى لطف بالمسلمين وأهلك ملك الألمان وإلا كان يقال إن الشام ومصر كانتا للمسلمين»!.

وهل أحدثكم عن الصدفة الأخيرة التي هدمت الأندلس وعن معركة العقاب التي يسميها الإسبان بمعركة الكلاب؟! كان محمد الناصر خليفة الموحدين قد قرر بعد أبيه المنصور أن ينتهي مع الإسبان وهجماتهم التي لا تنتهي، بمعركة حاسمة أعد لها فيما يقولون نصف مليون جندي حشدهم على امتداد جبال سييرامورينا المتجهة من شرق إسبانيا نحو الغرب. عقدة الجيش كانت حول حصن العقاب، الذاهب في السماء صعداً. سداً من البشر جعلهم على سد من الجبال دون الأندلس والوادي الكبير.

على الطرف الآخر كان الفونس القشتالي قد بعث إلى كل أرض في أوروبا المسيحية يستجير. وإلى كل سيد. حتى البابا أرسل ينجده وحتى القسطنطينية. كان قد مني بهزيمة شنيعة أمام المسلمين في معركة الأرك قبل أربع عشرة سنة. وما يوم الأرك بسر!

أما الخليفة الموحدي فكان واثقاً من النصر. أعداد جنده وعدة القتال

التي أعد وحماسة المقاتلين كانت تطمئنه. وكان يدرس خط التطويق للإسبان الذين لن يفر منهم أحد فقد سدت كل الطرق ولجأ الإسبان للمفاوضة والمهادنة. وجاءت المصادفة التعيسة. أحد الرعيان في الجبال دل الجيش القشتالي على درب جبلي فاجأوا منه الجيش الإسلامي المطمئن وأوقعوا بقسم منه في مذبحة رهيبة أذهلت باقي الجيش... الذي حاول التراجع فلحقته السيوف والسنابك.. وكانت هزيمة ما عرف الجيش الموحدي مثلها أبداً... انتشرت على الصخور منه الجثث بعشرات الألوف... شبعت الأرض دماء منها وأتخمت النسور بالأشلاء... أما القرى والسهول الإسلامية فقد أقفرت من الرجال وأما الحصون فقد فرغت من الحماة!

كانت هذه هي المعركة الأخيرة الكبرى التي سقط بعدها الوادي الكبير كله بكل مدنه الأندلسية: قرطبة وأشبيلية وجيان ومائة مدينة وقرية نهائياً بيد الإسبان!

هل أزيدكم أمثلة؟ أتسمعون بمجاهد العامري؟ كان في عهده في مطالع القرن الخامس الهجري فرق الدنيا وهزة الناس في الحوض الغربي للمتوسط. قاعدته في دانيه بالأندلس تشرف على البحر. حكم جزر الباليار وأخذ سردانية بعد معارك ومعارك وبنى لنفسه مدينة فيها. ودفعته الأحلام لمهاجمة البر الإيطالي فساق إليه في ١٢٠ سفينة وألف حصان وقرر غزو مدينة بيزا. كان مخططه أن يقمع القراصنة الأوروبيين وأن يجعل الحوض الغربي للمتوسط حوضاً إسلامياً.

تسلل بأسطوله في هدأة الليل وعبر بسفنه نهر الأرنو الذي يشق بيزا نصفين. فاجأ الحاميات القليلة وكتم أنفاسها وسقط أحد أحياء المدينة بيده دون عناء وتقدم بالسفن إلى الضفة الأخرى حيث يقوم قصر الحاكم. كان كل شيء لدى مجاهد محسوباً إلا تلك المصادفة التي وقعت! تنبهت امرأة بيزية تدعى جيوسيكا كيزموندي إلى أصوات غريبة حول بيتها وخرجت فرأت وجوهاً غريبة وركضت عبر البساتين إلى قصر الحاكم تخبره. ودقت الأبواق

والأجراس واحتشدت الحاميات . وكان على مجاهد أن يتراجع فجنده قليل ... وركب البحر إلى سردانية . وهناك وقعت المصادفتان الثانية والثالثة . تمردت القوات على مجاهد تشكو من هذه المغامرة العبثية وانتشر الوباء في المدينة التي بناها . وفيما كان يعالج المصادفتين فوجئ بلحاق أسطول بيزا وجنوه به . فالتجأ بجنده وسفنه إلى ميناء لوتي . ولكنه حوصر هناك أشد الحصار . وبلغ من القهر حد البكاء حين وقعت المصادفة الأخيرة هبت العواصف ضد أسطوله فكانت تحطمه بعضه على بعض وسفن أعدائه تلتقط الساقطين في البحر أسرى ! وذهب في العواصف ٨ آلاف فارس ولم يبق من سفنه سوى خمسة مراكب !

وتتداعى إلى الخاطر عشرات من المصادفات التاريخة الأخرى ونختار بعضها في اقتضاب عابرين .

ــ يوم وصلت الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٧ إلى شمالي الشام وحاصرت أنطاكية وقائدها الإسلامي ياغي سيان استمر الحصار عشرة أشهر وأمر السلطان السلجوقي وهو بعيد في إيران قائده على الموصل أن ينجد أنطاكية ومعه جيوش حلب ودمشق تعاونه . وكان تركياً اسمه كربغا . فسار بالجيش وبدلاً من أن يسرع فيه توقف عند مدينة الرها يحاصرها ثلاثة أسابيع . ولما لم ينل منها شيئاً سار إلى أنطاكية ليجد أنها سقطت بيد الفرنجة الصليبيين قبل ثلاثة أيام . وقتل المدافع فيها ياغي سيان . قتله حطاب في بعض الغابات .

كان ياغي سيان وجنده قد استهلكوا كل ما في المدينة من المؤونة وحين دخلها الفرنجة لم تكن الأيام الثلاثة كافية لتموين جديد فكأن الفرنجة وقعوا في القفص ! وحين ضرب كربغا عليهم الحصار بدأوا في الهرب ... وكان المهيج الشعبي بطرس الراهب أول الهاربين ولم يأمر كربغا بالهجوم . انتظر أن يموت الفرنجة جوعاً . وفجأة خرج الفرنجة يائسين ينقضون على الجيوش الإسلامية المحاصرة وكانت المفاجأة الغريبة . هربت هذه الجيوش . واستولى الفرنجة على تموينها وكراعها وأموالها ... وساروا بعد ذلك نحو بيت المقدس . هذه المصادفة

التعيسة دفع المسلمون ثمنها بعد ذلك مائتي سنة من الجهد والمال والقتال... واضطروا لدفع عدة ملايين من الفرنجة قبل أن يخرجوهم الإخراج النهائي من عكا...

والذين يعرفون تاريخ البرتغال يعرفون أن هذه الدولة الاستعمارية العتيقة قامت بثلاث مصادفات:

الأولى: وضعت نواتها الأولى حين كان كونت إسباني اسمه هنري يحاصر أشبونة سنة ٥٤٢ ولم يكن معه من القوى البحرية الخاصة ما يحاصر به هذا الثغر الإسلامي. وفجأة جاءته المصادفة بأسطول من حيث لا ينتظر كانت مجموعة من السفن الإنكليزية مبحرة للالتحاق بالحملة الصليبية الثانية في الشام فأرغمتها العواصف على اللجوء إلى مصب نهر دورو على الساحل الغربي لإيبريا. وبعث إليهم الكونت يستأجرهم لمعونته. وقال لهم الأسقف لا داعي للسفر إلى الأرض المقدسة للحرب من أجل الصليب. المسلمون هنا في متناول أيديكم. وأجر هذا الأسطول نفسه وحاصر أشبونة أربعة أشهر حتى سقطت في مذبحة دامية... لتكون لشبونة عاصمة الدولة!

بعد ذلك بثمان وثلاثين سنة حين جاء يوسف بن عبد المؤمن يحاربهم في شنترين وقعت المصادفة الثانية التي سبق أن ذكرنا قبل قليل يوم أصيب السلطان بجراح مميتة لم تمهله... وفشلت حملته.

ثم بعد ذلك بسنوات خمس فقط جاءت المصادفة الثالثة. عبر الشواطئ الغربية البرتغالية سنة ٥٨٥ بعد حطين وسقوط القدس بسنتين أسطول فرنجي من خمسين سفينة عليه جماعة كبيرة من الصليبيين الألمان والفلمنك يريدون الشام ليلتحقوا بالحملة الصليبية الثالثة التي كانت صيحتها في ذلك الوقت تملأ الغرب كله حقداً ونقمة على صلاح الدين.

وانتهز ملك لشبونه سانشو الأول الفرصة التي سبق أن انتهزها جده قبل ثلاث وأربعين سنة. وطلب منهم معونته في قتال جيرانه المسلمين. واستجابوا

لطلبه فالأجرة كانت مجزية فتقدم بهم يحدقون بمدينة شلب أحصن البلاد الإسلامية على الحدود . وقد دافع عنها أهلها الدفاع المميت لكنهم لم يستطيعوا الصبر على العطش حين قطع البرتغال عنهم مياه قراجة التي تمد البلد بالمياه ... وسقطت المدينة ليمد سانشو عندها حدوده الشرقية ! ..

وماذا نذكر إلى هذا أيضاً ؟ خذوا مالطة . هذه الجزيرة الاستراتيجية الصغيرة ظلت في حكم فرسان القديس يوحنا الصليبيين بعد طردهم من القدس ثم من قبرص ومن رودوس وقد منحهم الإمبراطور الإسباني شارلكان حصن مالطة سنة ١٥٣٠ ليكونوا شوكة قرصان في خاصرة المغرب العربي . وحاول والي طرابلس دارغون الاستيلاء عليها دون جدوى . وكاد في المحاولة الثالثة سنة ١٥٦٥ أن يحتلها بالتعاون مع أسطول الجزائر والأسطول العثماني وأسطول الاسكندرية . لكن المصادفة وقعت . جاءته قنبلة أخذته والنصر ملك يديه وبقي أسطول العثمانيين على الحصار . وتغير مجرى الأحداث وصمد قائد الحامية منتظراً أن يأتيه مدد لا يعرف من أين يأتيه . وجاء بالمصادفة أسطول إسباني فاضطر العثمانيون للتراجع ... وبقيت مالطة تقطع الطريق على السفن الإسلامية ٢٢٥ سنة حتى استولى عليها نابليون سنة ١٧٩٩ وطرد فرسان القديس يوحنا إلى الفاتيكان ... حيث لا يزالون إلى اليوم !

هل نذكر المزيد ؟ــ بعد اكتشاف أمريكا تسابق المغامرون من إسبانيا خاصة والبرتغال للظفر بالغنيمة الهائلة . دنيا كاملة انفتحت عليهم وأرادوها أرضاً دون بشر . ومن البشر ؟ قطعان من الجلود النحاسية يرشهم الرصاص فإذا هم جماجم يعشش فيها الطحالب . إنما اختلف الإسبان والبرتغاليون على الحصص ... وقامت المنازعات قبل أن يتفق الخصمان على تحكيم البابا في الخلاف !

ولم يكن البابا الكسندر بورجينا أعلم من غيره بما وراء الأطلسي أو يعرف أين تبدأ الهند ؟ وأين ينتهي البر الجديد ؟ وأتوه بخارطة الأرض كما عرفوها

وتناول قلماً ورسم به خطاً مستقيماً اعتباطياً يمتد من القطب الشمالي حتى الجنوبي ويمر بنقطة تبعد مائة فرسخ غربي جزر آصور وحكم أن الأرض التي تقع شرقي هذا الخط للبرتغال وما وقع منها غربه فهي للإسبان ... وأزيح هذا الخط نحو الغرب بعد سنتين ثم أزيح مرة ثالثة بعد سنوات ولكن رغم تجاوزات الطرفين له ظل محترماً ألم يرسمه البابا؟ وماذا كانت النتيجة؟ النتيجة أن البرتغال ظفرت بأرض البرازيل ونشرت حكمها ولغتها فيها إلى اليوم وأن الإسبان ظفروا بباقي القارة من المكسيك حتى الأرجنتين وشيلي: وأساس التقسيم خط اعتباطي بالقلم!

ثم هل تذكرون كيف قطع رأس لويس السادس عشر إبان الثورة الفرنسية؟ التهبت الثورة حتى أرعبته وقرر الهرب من فرنسا ليلتحق بالنبلاء الذين هربوا منها لعله يعود وأبهة الملك التي انهارت قد عادت إليه.. وركب العربة تخب به وبعائلته في الليل. عند الصباح كان عند قرية قرب الحدود توقفت الخيل تستريح وأطل من العربة رأس الملكة تسأل القرويين: هل الحدود قريبة؟ وقال قروي: هي ساعة وبعض الساعة!

ولكنه رأى في الداخل وجهاً يعرفه. وجهاً مرسوماً على النقود وصاح:

ـ إنه الملك! بلى إنه الملك. عرفه بالمصادفة المحضة وانتشر الخبر وتجمهر القرويون بالمناجل والفؤوس حول العربة. إذن فالملك يريد أن يهرب؟ وأعادوا العربة مرغمة أدراجها بفضيحة الملك الهارب. الذي دخل باريس كسير النفس محطماً فيما كان الباريسيون يستقبلونه بالهرج والصخب والسخط والشتائم!..

بعد فترة قصيرة كان الملك يركب عربة أخرى مكشوفة توصله إلى المقصلة!!...

وهل تذكرون أيضاً معركة واترلو؟ نابليون بونابرت الذي دوخ أوروبا

خمس عشرة سنة وتحالفت أوروبا كلها ضده ست مرات حتى استطاعت هزيمته ونفيه إلى جزيرة إلبا وإعادة الملكية إلى فرنسا تمكن من الهرب والعودة إلى فرنسا . كان قد أصبح بالنسبة للفرنسيين أسطورة وما إن نزل الساحل الجنوبي حتى عاد الهتاف له يشق عنان السماء ! وعاد جنرالاته يعانقونه العناق الطويل ويمشون وراءه إلى باريس التي فر منها الملك .

وسمع سادة أوروبا ــ وكانوا في مؤتمر فيينا ــ بالخبر الذي تركهم مصعوقين ! وفيما كان نابليون يعيد تشكيل جيشه كان المؤتمرون يتدبرون بدورهم جيوشهم . وسار إليهم وساروا إليه خلال مائة يوم . وكان اللقاء في سهول واترلو المتموجة جنوب بروكسل ...

في أشد لحظات المعركة حرجاً وفيما كان نابليون ينتظر وصول قائده غروشي نجدة له وقعت ثلاث مصادفات : وصل الجيش الروسي نجدة لخصمة ولنغتون ــ وهطلت أمطار غزيرة غزيرة جعلت الجيش الفرنسي ــ وكله فتيان ــ يخوض في الوحل وفاجأت نابليون آلام ممزقة في الأحشاء جعلته يتلوى كالأفعى على الوسائد . ثار عليه سرطانه المعوي الوراثي . فلزم خيمته لا يستطيع الخروج لجنوده ... وهزم نابليون في المعركة ليستسلم لأعدائه الإنكليز ثم ليقضي بقية حياته في جزيرة القديسة هيلانة بين أمواج الأطلسي الجنوبية !

ولم نذكر بعد مصادفة حجر رشيد واكتشاف أسرار الكتابة الهيروغليفية ولا المصادفات التي أنقذت صلاح الدين من خناجر الاسماعيلية ولا المصادفة التي جعلت توت عنخ آمون أكثر الفراعنة شهرة لمجرد أن مقبرته الصغيرة لم تسرق وكانت تحت مقبرة أخرى . ولا المصادفة التي تجعل من بعض أطفال التيبت آلهة ... ولا المصادفة التي جعلت من ياقوت الحموي العالم الجغرافي العظيم ولا تلك التي نشرت سر الورق على يد العرب . ولا المصادفة التي أعطت مكتبة الأسكوريال ثروتها من المخطوطات العربية . القصص لا تنتهي ! وتَدَخُّل المصادفات في التاريخ جزء من نسيج التاريخ ! فكيف نفسر

هذا العامل التاريخي الذي لا يخضع لمنطق ويتدخل مع ذلك فيها فيقلب جميع الخطط ؟

على أن التاريخ لا يعترف بما نستطيع أن نسميه ميتا تاريخ أو ما وراء التاريخ . تلك التخيلات التي تبدأ بكلمة « لو أن » لو أن هذا الأمر لم يجر ! لو أن فلاناً لم يصل ! فماذا كان يمكن أن يكون ؟ ومع ذلك فهذه الـ « لو أن » تجري فعلاً في التاريخ ونسميها المصادفة ولو أن المؤرخين يرفضون الجري وراء ألغازها المحيرة لأنها تمد لهم من الغيب بألف لسان !

صحيح أن هذه التخيلات الماوراء تاريخية ليس في استطاعة المؤرخ أن يقع فيها ولو أنها تفرض نفسها على قلمه . إنها أقرب نقطة يصل بها إلى حدود العلوم الطبيعية ويطرق بابها . لو فتح الباب ! وعرفت القوانين السرمدية المحركة للحياة الإنسانية . لو فتح ولكنه لن يفتح . قبيل « اللوات » كله مطرود من التاريخ لأن التاريخ لا يعترف إلا بما كان لا بما كان ممكناً بمحض المصادفة أن يكون ومع ذلك فإنه عن طريق المصادفات غير المنتظرة تدخل عليك ولو من النافذة . وتفرض نفسها علي وعليك لكنها لا تنسج مصيري ولا مصيرك ... الفرق فقط هو أن الـ(لو أن) لم تجر وأن المصادفة جرت ووقعت . كبار المؤرخين ، في نهاية أعمارهم ونهاية دراساتهم للتاريخ يلقون السلاح . تجمد الأقلام في أيديهم . صحيح أن بعضهم يرى في التاريخ نوعاً من الخطة الغيبية أو التصميم الماورائي أو الاتجاه الإلهي ولكن كثرتهم تقف قبل أن تقلب الصفحة الأخيرة فلا ترى شيئاً ... سوى خليط الرؤى على الموج الذي يمور ...

مؤرخ درس بعمق تاريخ الرومان واليونان والعصور الوسطى وإنكلترا هو تشارلز أومان مثلاً كتب : « بعد أن عملت ثلاثاً وخمسين سنة في البحث والتأليف في حقل التاريخ يجوز لي أن أقدم فلسفتي فالتاريخ في اعتقادي سلسلة من الحوادث المتعاقبة التي لا منطق في حدوثها في الغالب والتي كثيراً

ما تكون انقلابات عنيفة وليس التاريخ تطورات منظمة حتمية تنتج عن أسباب ومقدمات معينة . التاريخ مليء بمسائل من نو ع ما كان يجوز أن يحدث . وهذه المسائل التي لم تحدث لها طرافتها التي لا تقل عن الأمور التي حدثت ... » .

مؤرخ آخر هو فيشر الذي صرف حياته يؤمن بخطة معينة في التاريخ وهو من أعظم من درس تاريخ أوروبا . كتب في النهاية : « إن بعض من هم أعمق مني حكمة ومعرفة وأصدق حكماً اكتشفوا في التاريخ حبكة تامة أو إيقاعاً محكماً أو خطة مرسومة . لكن هذه الأمور لم تتكشف لي . وكل ما أستطيع أن أراه فيه هو حالات متعاقبة متلاحقة تتلو الواحدة الأخرى كما تتلو الموجة الموجة بالمصادفة . وليس من الممكن أن نخلص من دارسة هذه الحوادث إلى قواعد عامة أو أسس موحدة . وكل ما يستطيع المؤرخ أن ينتهي إليه هو أن التاريخ البشري تؤثر فيه أمور غامضة عنا وقوى بعيدة عن معرفتنا ... » .

مؤرخ ثالث هو تريفيليان . وكان إلى عهد غير بعيد عميد كلية ترينيتي في جامعة كمبردج وكان يعتبر مؤرخ إنكلترا الأول بما أصدر من عديد المؤلفات كتب : إن التاريخ البشري لا يمكن تحليله تحليلاً علمياً لا يمكن أن يكون التاريخ علماً فالإنسان مغرق في التعقيد والروحانية والخلاف وفي أحداثه أمور لا تفسر !

بول فاليري شاعر فرنسا الكبير كتب : « التاريخ أخطر كيمياء صنعها العقل البشري . إنه لا يثبت شيئاً ولا ينفي شيئاً وما فيه إلا الحوادث المتعاقبة التي لا تعني في مجموعها أي شيء ... وليس من منطق يربطها . إنه مصادفة تتبعها أخرى ! ..

ونسأل إذا كان أمثال هؤلاء ليسوا على يقين في التاريخ من شيء . فالسؤال في الواقع لا يقف هنا . إنه يمتد إلى غائية الكون وإذا قلنا بالغائية فأين تراها تمتد ؟ الله كما يقول المؤرخ الإنكليزي المعاصر جون ماك موري في كتابه دليل التاريخ هو العلة الأولى أو المحرك الأول والتاريخ هو فعل الله المستمر .

ومعرفة الله تتم بفهم هذا العمل التاريخي . فمعرفة الله ومعرفة التاريخ مرتبطان ارتباطاً تاماً بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر ! .. أهناك المنتهى ؟

أما إذا لم نقل « بالغائية » فهل يعني ذلك أن الكون بما فيه كتلة من الفوضى والمصادفات أطلقتها يد الله لعبة من اللعب ؟ هنا المسألة ! ولكن الجري وراءها خبب في تيه الميتافيزيك وليله الأليل وهو الضياع في اللجج ! أنا لا أومن بهذا ولعلي بالعكس أومن أن المصادفة جزء من قدر الكون وآنيته . ولعلها حرب على رتابة المنطق الكوني وإنما وقعت لتسير الحياة والتاريخ والأحداث على ما كان يجب أن تسير عليه . أبداً ما أردت أن أقول في آخر هذه الرحلة الطويلة مع المصادفات إن التاريخ وإن الإنسان ألعوبة بيدها . ما إلى هذا قصدت . ولكن إلى عكسه تماماً . ليس النظام الكوني والإنساني في جملته بالنظام المنفلت الذي تكسره أو تغيره أو تلغيه مفارقة مجهولة الينابيع .

هل أقول ذلك من قبيل المجازفة في القول ؟ ما أبعدني عنها . إني حين أستذكر الذرة المتناهية في الصغر في نوتروناتها وبروتوناتها المعجزة تدور بدقة وقدر . والتفت إلى تكوين الدماغ الإنساني الذي يفوق مئات المرات أعتى كومبيوتر ابتكره البشر . ثم انظر في هذا الكون الهائل السعة والذي ما يزال يخلق ثم يخلق ويغيب بعضه في الثقوب السوداء . وبعض يعدل مائة مليون مجرة في كل منها ما بين مائة إلى أربعمائة مليون مجموعة شمسية يطوف بعضها في بعض على بلايين السنين الضوئية . ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ... ﴾ حين أجمع ذلك كله أمام المصادفة الكبرى مصادفة الوجود الإنساني على ظهر هذا الكوكب الطيني الضئيل لا أستطيع أن أقبل لنفسي أن يكون هذا الوجود هزيلاً ولعبة فوضى . لا ! لا مصادفة في اعتقادي . ولكنها القوانين الصارمة التي لا نرى ولا نعرف . والموجودة في أعماق الأحداث تسيرها ليكون التاريخ بالشكل الذي هو كائن . ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ﴾ ؟

وتدخل المصادفة في الأحداث أشبه بخطيئة طبيب ابن الرومي إذ سقاه دواء بدل دواء وتبين الشاعر أنه ميت لا سبيل. وأقبل الناس يلحون الطبيب. فقال ابن الرومي:

غلط الطبيب على غلطة مورد عجزت موارده عن الإصدار
والناس يلحون الطبيب وإنما غلط الطبيب إصابة الأقدار

وتدخل المصادفة بدورها في التاريخ تنفيذاً للأقدار ولقوانين الكون والوجود. أم لكم رأي آخر؟

المصادفة واللغز

.... وجاءني صاحبي كرة أخرى وقال :

حديث الأمس حول الصدفة كان رحلة في فيروز الفلك . كان جناح نخلة عطشى تحاول أن تشرب القمر . حكاية المصادفات والكون طويلة طويلة . ولو كنت أصدِّق الماديين في ما يزعمون ... إذن كان الوجود كله مصادفة ... سعيدة أو شقية لست أدري . كل شيء ، عند العري النهائي ، مصادفة . مصادفة إلهية ... ولكن دعنا على تراب الأرض . شوق الشراب أصيل فينا . أصيل . هات هذه المصادفات التاريخية أحداثاً من الأحداث . لم لا حولتها إلى وقائع إنسانية من لحم ودم وأعصاب ...

وتراكضت على جفوني — وصاحبي ما زال يتحدث — مواكب المصادفات في التاريخ قلت المسلخ كبير كبير . والجثث ملايين ورأسي متعب ماذا ألتقط من المصادفات وماذا أدع ؟ للصدف ألف ألف ثوب وشكل . إن لها تارة وجه شيطان وأخرى وجه فأر محنط ولها أحياناً صرير الأنياب في لحم الأطفال . إنها تهبط على غير منطق ولا انتظار على المسرح . كقاطع الطريق تهبط . كسكين الاغتيال تهبط وتحول دفة الأحداث إلى يدي نذل أو يدي بطل ... وقد تضع الفشل حيث لا بد من الظفر وتسوق الرياح شمالاً وحقها أن تكون إلى جنوب . كأنما إرادة خارجة على الإرادات ، على القانون على منطق السببية والعلنية هي التي تسوقها وتلعب بها .... وبالتاريخ ! وقال صاحبي : إني إذن لأتساءل لماذا يتعب الباحثون جباههم لتعليل الأحداث والتفسير ووضع

القوانين والموازين «وقاطعة الطريق» هذه على استعداد لكسر كل منطق. وللعبث من خلال الميزان بالميزان؟

ترى أليس هذا اللغز هو أخو لغز الأنهار والبحار الذي يقولون إنه وحده الذي حير الملك سليمان؟ كان ينظر إلى الأنهار تجري لتصب في البحار أبداً. فلا الأنهار نضبت ولا البحار امتلأت... وإنما حيره اللغز لأنه لم يكن فقط يعرف قوانين تبخر الماء. وجري السحاب في الدورة الأبدية...

قلت: لم لا يكون؟.... وإن شئت بعد هذا تحدثنا الأحاديث الطويلة في الأيام المقبلة، حول الصدفة في التاريخ بمختلف أنواعها التي تخطر بها هنا وهناك على ألا تطالبني بالتفسير والتعليل. دع اللغز لغزاً. دع الأقدار تأخذ مداها الطلسمي. ألا تستمتع بلذة من يتأمل مستعمرة النمل من عل وهو في برجه العاجي؟ أليس يكفي أن تعب ملء الشرايين من الربيع دون أن تكشف كيمياء العطر في كل زهرة؟....

والمشوار طويل طويل مع هذه الصدف ولست أخشى على قدسية التاريخ أن تجرح في العنفوان. وعلى ردائه الجليل أن يمزقه اللامنطق. التاريخ في أعماقه نوع من التعرية للإنسان وللشرط الإنساني. ورداؤه الذي نسجناه في الوهم من الاحترام ودعوى العدالة والحياد والاتزان مملوء بالثقوب. وبأدنى الغرائز... الإغريق الأقدمون كانوا يروون في أساطيرهم أن ربات الفنون كن أخوات تسعاً. عذارى وعرباً أترابا. لكل فن ربة إحداهن (كليو) هي ربة الملاحم والتاريخ. كانت في الظاهر أكثرهن طهراً. وكانت تتميز بثوبها السابغ السابغ دون الأخوات الأخريات وإنما كانت تغطي بالأذيال الطويلة ساقاً لها متشوهة لم تكن سوى ساق عنز!..

وغضبت عليها الآلهة ذات يوم فأطلقت عليها كوكبة من القردة تداعبها باستمرار وترفع أطراف الثوب في اللحظات الحرجة. وكانت كليو تمتلئ بالغيظ، لوقاحة القرود، إلا أنها اتفقت معهم في إحدى المناسبات أن يعروا

جانباً من ثوبها عامدين . ثم اتفقت معهم مرة أخرى أن ينزعوا عنها الثوب كله في حضور بعض الآلهة والأبطال ...

وذات مرة وكانت تتشهى التعري أمام أحد الأبطال بحثت عن القرود فلم تجدها . ومنعتها الكبرياء أن تمد يدها إلى الثوب ... فاشتعلت غضباً على القرود . وأتتها وانهالت عليها بالضرب . وظن هؤلاء أنها غاضبة لأن الهواء قد طار بالثوب . فحاولوا تغطيتها فازدادت غضباً على غضب . وتعرت بيديها الاثنتين ... ونظرت فإذا البطل الذي تريد قد ذهب ... وبكت كليو مرتين مرة على جمالها الذي لم يره أحد ومرة أخرى على ساقها ساق العنز التي لم ترهب أحداً ! ...

أليس هذا هو التاريخ ذو الثوب السابغ وجماعة القرود الإنسانية واللحظة التاريخية التي تأتي صدفة وتذهب صدفة ؟ وساق العنز التي لا ترهب أحداً ؟!

إن شئت يا صاحبي ، كنا ، منذ الغد ، على المشوار الطويل مع بعض الصدف وأهل الصدف في التاريخ ... إن لها جميعاً إيقاع القدر ورهبة القدر ....

حجر رشيد

في المتحف البريطاني تقبع منذ سنة ١٨٠٢ قطعة حجر لعله ما في الدنيا حجر أسدى للإنسانية من الخدمة مثل الذي أسداه هذا الحجر. إنه مجرد قطعة صخر من البازلت مهشمة الجوانب ضاع قسمها العلوي أيضاً فما بقي منها سوى متر وبضعة عشر سانتيمتراً بعرض ٧٥٫٥سم وسمك لا يجاوز ٢٧٫٥سم. إنه مشهور شهرة الماسات الكبرى مسجل الاسم في كل موسوعة. ويسمونه حجر رشيد، تلك البلدة المصرية على الشاطئ المصري من البحر المتوسط.

يوم وجد هذا الحجر في صيف سنة ١٧٩٩ كان نابليون بونابرت قد بدأ في احتلال مصر. الحملة المصرية التي قادها، في تلك السنة، كان هدفها أن تقطع طريق الهند على الإنكليز ولكن القائد الفرنسي حرص على ألا يعلن هذا أبداً. ولو أنه كان يعمل أيضاً بواسطة بعض عملاء دولته على قطع الطريق الآخر عبر بيروت دمشق بغداد الخليج العربي إليها. ويمهد لذلك مع البدو في بادية الشام.

في المنشور الذي طبعه بالعربية وهو ما يزال على الأسطول، في عرض البحر لم ير البر المصري ذكر أنه قادم بأمر السلطان لتأديب المماليك. كذب في الدعوى. لعله يبدأ الاحتلال بسلام. واستهل المنشور بالبسملة. وبآيات من الذكر الحكيم. وحين نزل البر وسفن الإنكليز تلاحقه تبع الطريق الصحراوي غربي الدلتا. ورافقته بضع سفن من فرع رشيد في النيل لئلا يتورط، كالحملات الصليبية (الخامسة والسابعة) في دخول الدلتا. لكن الإنكليز

أوقعوا بأسطوله في أبي قير . بعد أن رسى هناك . قتلوا قائده وأغرقوا سفنه فلم ينج منها سوى بعض السفن الصغيرة التي لاذت بالفرار . ولكن نابليون وجيشه كانا قد دخلا مصر . وفيما كان الإ نكليز يشعرون بالخيبة لإفلاته منهم كان نابليون يشعر بدوره أنه وقع في المصيدة . وأن عليه إذا شاء البقاء أن يتأقلم مع الواقع .. ويسترضي الشعب الذي نزل به من مشائخه إلى سوقته . كان من البراغماتيين البارعين، يلبس لكل حالة لبوسها بقدر ما تحمله من منفعة !

كان أول أيام الاحتلال فاتحاً يضرب بمدافعه المماليك وبنادقهم القديمة وسيوفهم المعوجة كما يضرب أبا الهول . ثم صار مملوكاً يلبس العمامة ويحضر مع المشائخ في الأزهر احتفالاتهم . وصار بين هذا وذاك رئيس ورشة من العلماء يدرسون كل شيء في مصر من المباني والآثار إلى عادات الناس والتقاليد ولغة القرآن . كان همه أن ينفذ إلى داخل هذا المجتمع الغريب ويندمج فيه . ولو أن جنوده كانوا يشربون الخمر ونساؤه كن سافرات ! أما ماذا يفعل في مصر وهو ابن الثورة الفرنسية التي لم يمض على اندلاعها سوى عشر سنوات أعلنت فيها حقوق الإنسان في الحرية والمساواة فكان سؤالاً يجهل الناس عامة جوابه ! ويحارون في تفسير السبب الذي يجعل الإنكليز يحاصرون هذا النسر الثوري الصغير ... كل ما كانوا يرونه هو منشورات نابليون « باسم الجمهور الفرنساوي » وملابسه المزركشة كالمماليك والآيات القرآنية التي ينثرها ترضياً للناس، ومبالغته في إظهار حبه الإسلام والمسلمين ! وحضوره الأعياد العامة كعيد المولد النبوي وعيد الخليج ! واستماعه في صمت إلى آيات القرآن وهو لا يفقه كلمة منها ! ولم يهتم الناس كثيراً بالجواب ولكن اهتموا بمقاومة هؤلاء الجند « الكفار » الذين عرفوا فيهم بسرعة وجه أوروبا العدواني الاحتلالي ... وقامت الثورة الشعبية على نابليون : مظاهرات صاخبة وبناء للمتاريس ومهاجمة الجند الفرنسي في أزقة القاهرة . وكشف نابليون عن وجهه الحقيقي حين نصب

مدافعه على جبل المقطم وصوبها إلى الأزهر والأحياء الوطنية تدمر ثم تدمر حتى وصلت كتيبة من فرسانه عتبة الأزهر .

ويبقى عمله الذي أراده عملاً استعمارياً فكان ، حين انقطع وهو بعد في مطلعه ، من أهم أعمال الرجل وأكثرها قيمة ومكانة : المجمع العلمي . جاء « بورشة » من العلماء المتخصصين في كل علم وفن ليعرف ما في مصر من الألف إلى الياء . كان يبغي الاستقرار والاحتلال الدائم منذ كلفوه الحملة وهو في فرنسا . فأعد للأمر عدته تماماً كما أعد للحرب مدافعها وعدتها . وما إن أتم الاحتلال حتى بدأت ورشة العلماء تعمل تماماً كورشة العسكريين في تصوير مصر المملوكية أدق تصوير . ودراسة كل ناحية فيها ووصفه . وكان ذلك كتاب من أهم الكتب بعنوان « وصف مصر » . لهذا كانت عيون الضباط قبل العلماء في الحملة تبحث في كل زاوية . وتحملق في كل شيء . منذ نزل رجالها في ثغر رشيد ، وتلتقط كل أثر ! وكان بين ما التقطته أحد ضباط سلاح المهندسين في الحملة ، حين دخول مصر ، حجر رشيد البازلتي الذي كانت عليه بعض النقوش المماثلة للآلاف من مثلها على طول وادي النيل . على أن ما كان يميزه أنه كانت على سطحه الأملس ، في أدناه كتابة يونانية مقروءة ...

يومها ، نقل الفرنسيون معهم الحجر إلى القاهرة . وأودعوه في المجمع العلمي الذي أنشأوه هناك . وقام نابليون بعد ذلك بمغامرته الفاشلة في غزو الشام . وهزم أمام عكا . ثم هرب من مصر عائداً إلى فرنسا . وترك الحملة كلها لمصيرها في يد الجنرال كليبر . وقتل كليبر من بعده . مزقه خنجر الفتى الفدائي سليمان الحلبي . وآلت قيادة الحملة إلى الجنرال مينو الذي وقع مع الإنكليز معاهدة العريش سنة ١٨٠١ بالانسحاب من مصر . وكان بين بنود المعاهدة تسليم جميع ما جمع الفرنسيون من آثار مصر إلى الإنكليز . وكان بعضها قد نقل إلى منزل الجنرال مينو في الاسكندرية وبينه هذا الحجر ... فكان بين

ما سلم! وذهب به الأسطول الإنكليزي إلى المتحف البريطاني سنة ١٨٠٢ ليستقر هناك...

كانت قد نقلت عدة رسوم تصور الأسطر الأربعة والخمسين اليونانية المنقوشة في أسفله ومن السطور الطلسمية الستة والأربعين الموجودة في أعلاه. وتوزعها علماء الآثار يجربون حظوظهم. وسرعان ما قرأوا في السنة نفسها تلك الكتابة اليونانية في أسفل الحجر. أما الرموز التي كانت في الأعلى فكانت طلسمات يحارون فيها.

المنقوش باليونانية تبين أنه نص مرسوم كهنوتي أقره المجمع العام للكهنة وأصدره الملك بطليموس الخامس المعروف بالمتجلي Epiphanus سنة ١٩٦ق. م. يشيد بفضل هذا الملك وهباته السخية للمعابد وللكهنة. ولكن ماذا في الخربشات التي تعلوه؟

وأقبل العلماء على الحجر يستنطقونه ويبنون الفرضيات والنظريات دون طائل إلى أن اكتشف شامبليون أن الحجر يحوي في طلسماته على كتابتين لا واحدة. إحداهما بالهيروغليفية والمشتق منها نفسها. وكان ها هنا خطأ الكثيرين ممن انصرفوا إلى دراسة الحجر وكلماته. ظنوهما نصاً وترجمته.

منذ انتشرت المسيحية في مصر وبادت الوثنية الفرعونية القديمة كانت قد قضي على الهيروغليفية معها وإن كانت كتابة مصر خلال خمسة وثلاثين قرناً. كان ذلك في القرنين الثالث والرابع للميلاد. ولما كانت الهيروغليفية سرية فقد اندثرت مع آخر من يعرفون رموزها. إنها خط الآلهة وما دامت هذه الآلهة قد بادت فلم يعد لخطها من حاجة وغابت تلك الكتابة مع غياب تلك الآلهة.

وعكف شامبوليون كغيره من العلماء على الرموز يقارن بعضها ببعض. ويمضي معها الليل والنهار حتى اهتدى للسر حين ابتدأ بالرموز المطوقة في النصوص الثلاثة. وهي تحوي اسم الملك بطليموس الخامس فحلها بالمقارنة ثم

حل رموز الكلمات الباقية ومعانيها بوضع المعاني المعروفة باليونانية في مواضعها . وحين انكشف له ثم للناس النص عرف العلماء بسرعة أن ثلاثة آلاف سنة أو أكثر من قصص التاريخ الإنساني قد أضيفت إلى التاريخ . وأن آلاف الأحداث الأسطورية التي كانت تعشش في الكتب الأولى وتبني لمصر تاريخاً من الوهم والسحر والعجائب قد اختنقت !

ترى لو لم يظهر هذا الحجر بالمصادفة ، وضاع كما ضاع مئات الأحجار مثله . ولم يلتقط بالمصادفة ليقرأ ويكشف مغاليق الهيروغليفية فكم ذا يا ترى كان التاريخ والفكر والحضارة تنتظر لتكشف عن نفسها ؟ وكم ذا يخسر العلم لو ضاع هذا الحجر الذي يساوي ألف كتاب وكتاب كما ضاع غيره؟ أو لو تجاوزته بالمصادفة أعين ذلك الضابط النابليوني المجهول الاسم في سلاح المهندسين ؟.

مصادفة دفعنا ثمنها مائتي سنة من القتال

في سنة ١٠٩٥م قبل أن يحتل الفرنجة الصليبيون القدس بأربع سنوات لم يكن أحد في الشرق يعلم شيئاً عن هذه الحملات التي استمرت مائتي سنة . ولم تكن في الأصل تعرف أوروبا شيئاً عنها . كان الشرق الإسلامي حلماً أبعد من البعيد لدى الكثيرين وكان القبر المقدس « ضريح السيد المسيح » فكرة غامضة موجودة في مكان ما من الأرض . بعد سنة من ذلك التاريخ كان تحرك الجموع البعيدة آلاف الكيلو مترات ووصولها وكثافتها لتخليص « القبر المقدس » من الكفار عبدة « الشيطان » المسلمين أشبه بالانفجار المثير في الغرب كما كانت مفاجأة مرعبة للشرق العربي . في سنة واحدة التحم العالمان في قتال استمر ينزف أكثر من مائتي سنة !

على طرق الشرق في تلك السنة كان زحف بشري مسلح بكل حديد ثقيل من السيوف والرماح والسكاكين والرماح والمطارق والسلاسل في رؤوسها الكتل الحديدية وعشرات الألوف من الحمير وبعض الخيل والعربات ومئات بعد مئات من رجال الكنيسة يتزعمهم راهب ترتجف لحيته تشنجاً هو بطرس الراهب ... ويلحق بهذه الجماعات المحاربة التي لا تحصى جموع من العاطلين ومن السارقين ومن طريدي العدالة وحثالات المجتمع الجائعة ... يتلمظون ! جرفت الحملة معها وبخاصة في طلائعها الأولى كل ما في الجهل والتخلف من سقط الجموع . وعلى الطريق إلى الشرق من قلب أوروبا نهبوا وسرقوا وقتلوا وقوتلوا وطردوا وارتكبوا كل منكر . ما كان الشعار الديني الذي رفع لهم ليمنعهم من شيء . حتى وصلوا القسطنطينية ، منعتهم هذه العاصمة الأنيقة من دخولها

وفتحت لهم الطريق ليجتازا المضائق في البر الآسيوي لتأدية مهمتهم. هذا الزحف الأولي إذا انتهى أكواماً من العظام تحت سيوف الترك السلاجقة المتربصين فإن الجموع التي لحقت به مع بعض الأمراء استطاع أن يخترق آسيا الصغرى إلى شمالي الشام... الذي هب مذعوراً على أخبار الزحف...

كانت أخباره المرعبة تتوالى على أمراء الشام الكثر ولكنها لم تكن تحركهم إلى أي عمل اتحادي. إن لم يكن انتظر كل واحد منهم بالعكس أن تسحق الحملة خصمه من الحكام ليفترس إرثه هنيئاً مريئاً. النزاعات الصغيرة فيما بينهم أعمتهم عن إدراك مدى الخطر الأعظم القادم فاستمرت تملأ أحلامهم المحدودة.

في دمشق كان أمير صغير يسمى «الملك دقاق بن تتش» ومملوكه الأتابك طغتكين ينازعان أخاه الملك رضوان في حلب. ورضوان يعتبر أخاه غاصباً لقطعة من إرث أبيه فلا يغفر له. والمؤامرات تحاك بين الأخوين لدرجة أن رضوان مد يده من حلب إلى القاهرة، وهو السلجوقي السني، ليتفق مع الفاطميين الشيعة هناك ضد أخيه... وهو يعرف أن هؤلاء الفاطميين ألد أعدائه وأعداء أسرته وأهله. وبين الملكين كان ثم في القدس أميران هما غازي وسقمان ولدا أرتق بك ويتبعان صورياً دمشق، وفي حمص أمير عربي هو خلف ابن ملاعب. وله البر والبادية وراء المدينة. وفي طرابلس أمير كان من قضاتها ثم صار رأس سلالة من حكامها هو ابن عمار. وفي شيزر أمير من آل منقذ يفرض الأتاوة والحراسة على قوافل التجار. وفي أنطاكية كان ثم حاكم مملوك اسمه ياغي سيان زوج ابنته من رضوان ملك حلب ولكنه رفض الانصياع له فتعاديا وعقد ياغي سيان الصلات مع ملك دمشق! وأما الرها (أوديسة أو أورفة) فكانت لأمير مسلم فاغتصبها منه مغامر أرمني وتسلم حكمها... في حين كان الفاطميون يتمسكون بالساحل ما بين عسقلان وطرابلس!

فسيفساء غريبة من الحكام في رقعة صغيرة ... وقد تكون بعض هذه الأسماء قد صدمتكم فإن لها وقعاً غير عربي والأرض هي الشام العربية بلى ! كان الحكام في تلك الفترة من السلاجقة الترك ومن مماليكهم الذين لم يمض على وصولهم إلى المشرق الإسلامي إلا عدة عقود فحكموه وحرثوا أرضه بأقواسهم البعيدة المرمى وبالسيوف والسنابك ... والعيون الصفراء !

قبل أن يصل الفرنجة الصليبيون إلى شمالي الشام افترق عنهم أمير اقتطع لنفسه إمارة الرها لدى صاحبها الأرمني تاركاً باقي رفاقه لمصيرهم . أما الكتلة البشرية الزاحفة فنزلت على أنطاكية وضربت عليها الحصار (٦ ــ ١٠٩٧ م) .

يومذاك استيقظ الناس في المشرق على صيحات الاستغاثة من ياغي سيان . لم يكن يأمل أن يساعده جاره القريب وصهره رضوان فبعث يستجير بالسلطان السلجوقي الأكبر بركياروق في أصبهان وبالخليفة في بغداد وبصاحب الموصل وبصاحب دمشق الأبعدين . ما كان لا هو ولا الذين استغاث بهم يعلمون من هم هؤلاء الغزاة المحاصرون لبلده ؟ ولا ما هم ؟ ولا ماذا يريدون سوى بلده ؟ أشكالهم غريبة ولكنه كان يظنهم ككل أهل الشام الذين سمعوا بهم بعضاً من الروم ... فللروم مع المسلمين تاريخ طويل امتلأ خلال خمسة قرون بضاري الحروب . وزعزعت الشام بغداد صيحة واحدة : قدم الروم ! حتى الفاطميون في مصر حين سمعوا بالهجوم ظنوه مغنماً وبعثوا إلى الفرنجة وهم بعد يحاصرون أنطاكية يعرضون اقتسام الشام نصفين فشمالها للروم وجنوبها للفاطميين . وعادوا من أنطاكية بهدية إلى خليفتهم هي عدد من رؤوس السلاجقة ! وبادروا فاحتلوا القدس وطردوا منها أبناء أرتق ! ..

عشرة أشهر ونيف ظل الفرنجة على أسوار أنطاكية . وعشرة أشهر ما هب أحد لنجدة ياغي سيان ! بلى ! قامت الجماهير في بغداد فبكت وكسرت منبر الجامع ونادت بالجهاد وخرجت من بغداد بعشرات الألوف .

لكنها لم تجاوز غير بعيد حتى تضاءلت صفوفها وتسلل المتسللون فلم يبق وراء سناجقها إلا بضعة نفر . وخرج دقاق من دمشق بجيشه حتى إذا وصل شيزر ورأى بعض قوى الفرنجة تنهب هناك عاد بجنده إلى دمشق خائفاً لا يريد أن يفقد جنده فأخوه يتربص به . ورضوان صاحب حلب لا يحرك ساكناً . كان يفضل أن تسقط المدينة الجارة ويأخذها الروم فيستريح من « عمه » الجار المزعج . وزعم بينه وبين نفسه أنهم لو كانوا يريدون حلب لنزلوا عليها قبل أنطاكية .

ومضت عشرة أشهر قبل أن يتحرك من الموصل جيش سلجوقي بأمر من السلطان البعيد في أصفهان : (بركياروق) لمعونة القائد التعيس المحاصر . صاحب الجيش كربوغا كان يحمل معه الأمر السلطاني بأن تجتمع جميع القوى السلجوقية في الشام تحت إمرته لتقف في وجه الغزو « الرومي » ! وسارت النجدة باسم الله مجراها ومرساها وعلى الطريق خطر لكربوغا أن يفتح أولاً المدينة التي كانت سقطت بيد الفرنجة (الرها) قبل أن ينجد ياغي سيان . فقضى ثلاثة أسابيع في حصارها عبثاً ... ثم تركها . وحين وصل أنطاكية كانت المدينة قد سقطت بيد الفرنجة قبل ثلاثة أيام !! (سنة ١٠٩٧ م) .

كيف سقطت ؟ الكل كان يتحدث عن خيانة . كانت المدينة عصية ذات أبراج فوق سورها المتين تزيد على الثلاثمائة وقد أخرج ياغي سيان منها الذميين ومن لا يقاتلون حفاظاً على المؤن التي تشح . واستطاع أحد أمراء الفرنجة (بوهيمند) أن يتصل بأحد حماة الأبراج (فيروز) ويغريه بتسليم برجه . وأفاق الناس ذات صباح فإذا علم بوهيمند يرفرف فوق البرج ! وانهارت المقاومة التي أنهكها الحصار . وهرب ياغي سيان ليلقاه بعض الحطابين في الغابات المحيطة بأنطاكية ويقتله !

ودخل الفرنجة الصليبيون المدينة ليجدوها فارغة من المؤن جميعاً وإذا كانت أسوارها سوف تحميهم فلم تكن لهم الفرصة لتزويد أنفسهم ، في الأيام الثلاثة التي أعقبت الفتح ووصول الجيش السلجوقي بالأزواد . وهكذا وجدوا

أنفسهم في مصيدة! وليس أمامهم فيها سوى الموت جوعاً بين حجارة السور ... وبدأوا يهربون من الجبال حتى بطرس الراهب هرب. من وصل منهم القسطنطينية أخبروا الناس أن جيش الفرنجة سحق وانتهى!

حول أسوار المدينة كان هناك مع جيش كربوغا جيش دمشق، ثم جاء جيش حلب على التلكؤ، وجاءت جيوش الأمراء الصغار. كلهم كانوا هناك وكانت الفرصة سانحة لسحق الفرنجة في مصيدة الفئران هذه لولا أن كربوغا فضل أن يموتوا جوعاً ... وأن ينتظر! ووافقه الأمراء لأن أقصى ما كانوا يمنون أنفسهم به هو أن تبقى جيوشهم سليمة تستطيع إذا شاؤوا تحقيق المطامع المسكينة وتستطيع إذا شاؤوا دفع المطامع! عين كربوغا كانت على حلب والرها. وعين رضوان على دمشق. وعين دقاق على القدس وعين ابن ملاعب على شيزر ...

وفجأة وقعت المصادفة المثيرة!

خرج الفرنجة وراء صلبانهم وقساوستهم يائسين. تدفقوا من أبواب المدينة وأقصى ما يبغون الهرب من الموت! وكانت المفاجأة أن أحداً من الجيوش المحاصرة لم يتحرك للقتال. اعتمد كل منها على الآخر ووقف ينتظر وحين تقدم إليهم الفرنجة تراجعوا ... هاربين تاركين ثقلهم وأسلحتهم والمؤن والخيام ... إلا الدواب فقد انطلقوا بها مسرعين. وحصد الفرنجة الغنائم حصداً ...

مصادفة لم يكن ينتظرها أحد! وهي لم تفتح فقط للفرنجة الطريق إلى القدس وإلى احتلالها سنة ١٠٩٩ ولكنها كانت بدءاً لاحتلال وحروب كلفت الشرق العربي الإسلامي مائتي سنة وتزيد من الجهاد والمآسي والقتال المرير ... عدا ما لحقها من الذيول هي الحروب الصليبية.

المصادفة التافهة جرت وراءها ويلات استمرت قرنين من العناء والدماء هل يذكرنا هذا بحرب صهيون سنة ١٩٤٨ وبحرب سنة ٩٦٧

﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ صدق الله العظيم!

صلاح الدين والمصادفة

قل : صلاح الدين واسكت ....

إذن فألف مجد يزهر في الحياة وألف كوة من النور تتفتح . وألف صلاة على أردية المجاهدين... الاسم أضحى حالة عشق. صار جزءاً من فرح النضال ومن حزنه . حال رمزاً أشبه بالأسطورة ، لولا أنها واقعة .... وعندما تتمطى الأحزان لجبروت الشيطان يكفي أن تذكر هذا الاسم ليبرعم الأمل وتنبت الزهرة في الصخر المنهار ...

صلاح الدين يوسف بن أيوب له بدوره حكاياته الطويلة مع المصادفات كم مرة انزرعت في دربه وكم مرة بعث بسببها من بني أهل القبور .... قضى صلاح الدين طفولته الأولى في بعلبك ثم كانت فتوته وشبابه الباذخ في دمشق. براعاته الوحيدة كانت استخدام السلاح ولعبة الكرة والصوالجة (لعبة البولو) في الميدان . ما كانت القيادات من همه ولا قتال الصليبيين حتى حين احتل نور الدين بن زنكي دمشق وجعل منها ومن حلب محوراً متسانداً مع الموصل لقتال الإمارات الفرنجية الصليبية الممتدة على طول الساحل الشامي في أنطاكية وطرابلس وحتى ذلك الوقت بقي صلاح الدين... بعيداً عن الأحداث ...

والتقى صلاح الدين بنور الدين عند الكرة والصوالجة... يلعبان بها معاً... والمصادفة أن نور الدين بدوره يهوى هذه اللعبة ويعتبرها من المران الحربي . وذات يوم ، حين استنجدت القوى الفاطمية في مصر وطلبت المعونة

خوفاً من احتلال الصليبيين للبلاد أجبر صلاح الدين إجباراً على الذهاب إلى مصر ، على كره منه وتردد ...

وهناك استطاعت القوى النورية أن تزيح الصليبيين وتخرجهم من مصر . بعد قليل ، صار صلاح الدين وزيراً للخليفة الفاطمي الآخر سنة ٥٦٤ وثقلت وطأة هذا التعيين على أهل القصر الفاطمي . وأحسوا وهم رجال الدولة بالخطر الذي يمثله هذا الوافد الغريب الذي صار له الأمر على مصالحهم ومكانتهم من الدولة : فقام رئيس بلاط الخليفة يدبر المؤامرة للقضاء على صلاح الدين . كان اسمه جوهر مؤتمن الخلافة وكان يتزعم الجند السوداني أقوى فرق الجيش يومذاك : ويعدون ٥٠٠٠٠ « خمسين ألف مقاتل » واتصل جوهر بملك الفرنجة في بيت المقدس ليهاجم مصر ، في موعد محدد يقوم فيه هو مع جيشه بثورة داخلية تسحق صلاح الدين وأعوانه ... وما كان بإمكان صلاح الدين أن يكشف هذه المؤامرة لولا المصادفة ... المصادفة المجردة . فقد وجد رجل تركماني من الجند في يد رجل بالي الثياب نعلين جديدين ثمينين أنكرهما عليه . وظنه سارقاً . ونظر في أحد النعلين فإذا كتاب المؤامرة المرسل إلى الملك الفرنجي بتحديد موعد التنفيذ ..... فقبض على الرجل وسيق إلى صلاح الدين الذي بعث على جوهر فوراً من قتله ولما ثارت جموع الجند السوداني لزعيمها حاربهم صلاح الدين في شوارع الفسطاط حتى أحرق أحياءها والمعسكرات ...

واستقر الأمر لصلاح الدين بعد ذلك فما لبث بعد سنتين وبعض السنة أن ألغى خلافة الفاطميين جملة واحدة . وألحق مصر بالخلافة العباسية سنة ٥٦٧ .. كان صلاح الدين يعرف أنه عادى بذلك قوتين خطرتين : اتباع الفاطميين في داخل مصر ، والفرنجة الصليبيين المتربصين خارج مصر ... ولكنه وإن كان يعلم إمكان التقاء هاتين القوتين ضده إلا أنه ــ فيما يبدو ــ لم يكن ينتظر أن يتم هذا اللقاء على شكل مؤامرة دولية واسعة دقيقة التخطيط

تجمع كل القوى الناقمة كتلك المؤامرة الثانية : التي وقعت بالفعل بعد خمس سنوات من المؤامرة الأولى . . .

في هذه المرة أواخر سنة ٥٦٩ تجمع كل من بقي من أتباع الدولة الفاطمية من الموظفين وبقايا الجند السودان وخدم القصر واتصلوا بأربع قوى خارجية :

اتصلوا بالملك الفرنجي الصليبي في القدس ليغزو مصر من ناحية الشرق والبر .

واتصلوا بوليام الثاني ملك صقلية النورمندي ليهاجم بأسطوله الاسكندرية من البحر ؟

واتصلوا بزعيم الاسماعيليين الباطنية في بلاد الشام يقولون « إن دعوتنا واحدة والكلمة جامعة » . وأوفد من عندك من تمرسوا يقتل الملوك غيلة لقتل صلاح الدين .. وكانت خناجر الاسماعيلية مشهورة بأنها لا تخطئ الضحايا . . .

وتعهدوا لهؤلاء جميعاً أن يشعلوا الثورة في القاهرة والفسطاط في موعد هذه الأعمال . . .

ولكي تكمل المؤامرة تدبيراً وفصولاً أقبلوا على صلاح الدين بالتملق والإغراء حتى اقتنع بإيفاد أخيه نوران شاه ، وهو يده الحديدية ، إلى اليمن في الجيش لتضعف قوى صلاح الدين . ولا يحل أخوه محله عند مقتله .

وتوزعوا سلفاً الأعمال والغنائم والوظائف وعينوا الخليفة المقبل والوزير وتقاسموا بينهم الدور والأملاك . . .

ووصل إلى القاهرة رسول من الملك الفرنجي لرسم الترتيبات النهائية للمؤامرة وهو يزعم لصلاح الدين حمل الهدايا ورسائل الود من الملك . . .

بينما أعدت في صقلية ٦٠٠ سفينة للإبحار عليها ثلاثين ألف مقاتل .

كل شيء في المؤامرة أعد في منتهى السر والدقة . وصلاح الدين غافل عن المياه التي تجري تحته . . .

وقبيل موعد التنفيذ بأيام جاءت الصدفة المنقذة :

طرق مجلسه فقيه من الوعاظ يدعى زين الدين بن نجا . كان من أركان المؤامرة . ولم يحتمل وجدانه الديني هذا الاتفاق مع الكفار فأفضى إلى صلاح الدين بكل أسرارها ...

وانتهى المتآمرون بسرعة على أعواد الصلب ، بينما مات الملك الفرنجي في بيت المقدس كمداً حين علم بانكشاف الأمر . وفشل الأسطول النورماندي أمام الاسكندرية . وانتهى بين الإغراق والحريق ...

ترى لو تمت المؤامرة فهل كان صلاح الدين في التاريخ أكثر من اسم مغمور بين آلاف المغمورين ، وهل كان التاريخ قد سجل شيئاً اسمه حطين أو الدولة الأيوبية ؟

النار الأغريقية

العابرون بمدينة استامبول، بعطر قبابها المتراخية، بالرشاقة الأنثوية في مآذنها، بما تختزنه جوامعها من جلال عتيق، بأسواقها الضيقة المغطاة كأنما تخفي ألف سر مكنون، بالقصور ما تزال أطياف السلاطين والجواري تخطر فيهن على العتبات ... العابرون هؤلاء يحسبون أن استامبول كانت منذ وجدت مدينة الإسلام. أليس هذا هو اسمها: إسلام بوليس[1]؟

ولكنها في الواقع لم تحمل هذا الاسم إلا منذ ٥٠٠ سنة فقط. قبل ذلك حملت أحد عشر قرناً اسم قسطنطين الذي أنشأها في ذلك الموقع العبقري بين ثلاثة أبعاد مائية فاتنة بقدر ما هي حصينة: بحر مرمرة وممر البوسفور وخليج القرن الذهبي ....

احتفل الإمبراطور قسطنطين ببناء هذه المدينة سنة ٣٣٠ للميلاد فلم تصبح بلد الإسلام إلا بعد ألف ومائة سنة ونيف ... يوم استطاع السلطان العثماني محمد الفاتح أن يدك أسوارها بالمدافع سنة ١٤٥٣ بينما كان أهلها فيما يروى يتجادلون في الملائكة: إناث هم أم ذكور؟ ... وكم ملكاً منهم يمكن أن يقف على رأس إبرة؟.. وبين هذين التاريخين كانت القسطنطينية على الدوام ورغم فترات الكسوف مدينة المدائن. أحد مراكز الدنيا الغربية. كانت بغداد النصرانية. إليها تساق القوافل والمراكب وأحمال البخور والبهار. وفيها يتدفق الذهب دنانير دنانير. ومنها يخرج الأباطرة. ويخرج العسكر المَجْرُ. وتخرج

---

(١) ليس الاسم آتياً من إسلام بوليس ولكن من استان بوليس ومعناها الطريق إلى المدينة.

أشرعة الأساطيل. ولقد وقفت بعناد، في وجه الفتح العربي الإسلامي تمنعه العبور إلى أوروبا، كل تلك القرون الطويلة ... ولم يعبر إلا طرق السبل الأبعد عبر إسبانيا وصقلية.

ويسجل التاريخ ثلاث محاولات كبرى قام بها رجال الإسلام لفتح هذه المدينة العصية. ومن عجب أنها كانت جميعاً في القرن الهجري الأول فقط وأن المصادفة ... هي التي لعبت الدور الأول في فشلها ...

كانت المحاولة الأولى على أي حال، حملة استطلاعية أطلقها الخليفة الأموي الأول معاوية سنة ٤٩ للهجرة/٦٦٨. كانت القوى البحرية العربية قد حطمت الأسطول الرومي تحطيماً شديداً في معركة ذات الصواري قبل ذلك بثلاث عشرة سنة. وقد شغل معاوية بعدها بالمشاكل الداخلية، فلما شعر أن الملك استتب له تحول من سياسة الدفاع إلى الهجوم. وأرسل الحملات برية وبحرية في وقت معاً لدراسة الطرق المؤدية إلى القسطنطينية. وفي العام الثاني أعد لها مدداً. وضرب الحصار على المدينة ولكن... لا الأساطيل كانت كافية ولا جنود البر .. كان الموقع الاستراتيجي لها أقوى من الطرفين ... وكانت نتيجة الحملة أنها تركت الصحابي أبا أيوب الأنصاري شهيداً عند الأسوار فما يزال قبره هناك إلى اليوم. وعاد الجند مقتنعين أن فتح القسطنطينية يحتاج إلى خطط أخرى. وإلى قوى أضخم وفي البر والبحر معاً ... بعد خمس سنوات أي في سنة ٦٧٤/٥٤ كان معاوية قد أعد كل شيء للفتح. احتلت القوى البحرية العربية سلسلة من الجزر في بحر إيجة اتخذتها قواعد ومراكز انطلاق وتموين. واجتمع أسطول الشام مع أسطول مصر في ١٧٠٠ سفينة وقيادة واحدة لعبد الرحمن بن خالد. عبرت مضيق الدردنيل واحتلت جزيرة قزيكوس في بحر مرمرة لتكون القاعدة والموئل. وتحركت الجيوش البرية تعبر الأناضول وتلاقي الأسطول حول السور الثنائي للقسطنطينية ....

هذه الحملة التي وضع معاوية على قيادتها ابنه كانت أكبر وأطول حملة

عربية طوقت القسطنطينة في التاريخ . إنها تعرف بحرب السنوات السبع . فقد استمرت حتى سنة ٦٠هـ/٦٨٠م . القيادة العربيـة الإسلاميـة كانت قد اتخذت كل عدتها للنصر . وكانت واثقة منه ... سكبت القسطنطينية أولاً على الأسوار كل قواها . أطلقت على الجند الإسلامي أمواجاً من سهامها . ضربت الأشرعة الإسلامية التي تملأ البحر بكـل مجانيقهـا ... خرجت بالسيوف والفرسان مرات تحاول كسر الطوق الحديدي الذي يخنقها . حاربت بالليل والنهار ورخصت الدماء . رخصت على الجميع ... وحسب الروم أن الحملة قد اتخذت قاعدة لها في جزيرة قرنكوس القريبة لقضاء فصل الشتاء . ومع الربيع التالي عادت للحصار والحرب ! وتكرر ذلك في السنة الثانية والثالثة والرابعة والخامسة حتى أنهك الحصار قوى المدينة وأشاع اليأس فيها ... وذات يوم في الحصار السادس فوجئ الأسطول العربي بما لم يكن ينتظر أو يتصور : قذائف من اللهب تلتصق بخشب السفن فلا سبيل لإطفائها ... وقد تقع في الماء فتظل تشتعل في الماء ! ... و .... إنها « النار الإغريقية » كما سموها ...

المصادفة أوصلت إلى القسطنطينية في تلك الشدة رجلاً من نصارى الشام اسمه كالينيكوس قدم للإمبراطورية اختراعه : تركيباً كيماوياً يقذف بنوع من القناة على السفن فتشتعل فيها الحرائق التي لا تنطفئ ...

وأخذت السفن العربية تحترق ويتشتت شملها . وأبحر الباقي مذعوراً يبتعد إلى ما وراء مضيق الدردنيل ... وجدت الحملة نفسها في النهاية مكرهة على فك الحصار والانسحاب من المضائق كلها ... ولم تستطع النجدات التي وصلت بعد ذلك معاودة الحصار المحكم لعاصمة الروم . وإن استطاعت منع الأسطول الرومي من التحرك ... وأرسل إمبراطـور الـروم سفيره يوحنـا إلى دمشق يطلب الهدنة التي أنهت سنوات الحصار السبع ... في السنة التي توفي بها معاوية سنة ٦٠هـ/٦٨٠م .

بعد ذلك بسبع وثلاثين سنة بعث سليمان بن عبد الملك بأخيه

مسلمة في حملة مماثلة ومعها في البحر ١٨٠٠ سفينة تحمل بدورها النفاطات... فقد كان سر النار الإغريقية قد عرف وقررت الحملة الإقامة حول القسطنطينة حتى الفتح... ولكن العواطف حول القسطنطينة والتيارات البحرية القادمة عبر البسفور في البحر الأسود تدخلت لمنع السفن العربية من العبور إلى القرن الذهبي وإحكام الحصار في الوقت الذي وصلت فيه أنباء الشام بموت الخليفة سليمان، وبأوامر الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز بالانسحاب...

وطوى المجاهدون الألوية والخيام وفتحوا أشرعة السفن للريح... ونجت القسطنطينية من السقوط إنها المصادفة...

وتأخر فتح الطريق للإسلام عبر القسطنطينية بعد ذلك ثمانية قرون.

وتأخرت تسمية القسطنطينية إسلامبوليس... حتى يأتي محمد الفاتح!.

وكثير من الأعياد مصادفات أيضاً

وأخيراً ... كنا في يوم عيد . مرة ثالثة ورابعة أراد صاحبي الحديث عن المصادفات . مهرجان العيد من حولنا في العنفوان ... كل عام وأنتم بخير ..

إنه ينسكب في الدروب ضجيج الأطفال ، وفي البيوت موائد وزيارات مرحة ، وفي النفوس — دع النفوس وما تكن — ولكنه يحاول أن يزرع الابتسام ، حتى على الشفاه التي حجرها الألم ! ... إنه هبة ربيع نطلقها بأيدينا ونحصدها بالأيدي نفسها ... لعل النار الإلهية تعود إلى الإشراق في الأعواد . ولعل مساحات الآمال تكبر .. تكبر ! ولعل السنابل تشرب الذهب ! حالة الحصار التي نعيشها سنة كاملة نكسرها فجأة بالعيد . كما يقرص الإنسان خده عند الحيرة ليحس أنه موجود ! ..

العيد اختراع إنساني . إنساني صميم . ليس للقطط أعياد ، ولا للشجر ولا لأزهار الليلك ... عبقري لا أشك في عبقريته ذلك الذي اخترع العيد .. أهم من الذي اخترع البنسلين أو كشف المكروب أو عرف كروية الأرض ذلك الذي اخترع الطريقة لزراعة الابتسام الإنساني ، لإيقاد القناديل الفزحية الألوان ، في دورة سنوية مستمرة . لقد كشف أن النفوس تصدأ وأن نزيف الرئة عملاً ورتابة ودوامة سنين هو التكلس . هو الموت ! ... بأسماء أخرى ! وأن القافلة الأبدية إن تابعت المسير دون توقف تحت سماء من حجر أفضت إلى الصحراء وإلى عطش الصحراء الجهنمي ورؤاه المجنونة ! ... وكشف بعد كل هذا أن الفرح بالحياة جزء من التمسك بها (وبعض من الشكران لله واهبها)

كشف أن الجوع للابتسام جوع حقيقي، أقسى من جوع الأمعاء. وأن الحاجة للعيد ليست أقل إلحاحاً من الحاجة للخبز ...

ولكن هل العيد فرح بالحياة فحسب؟ مجرد فرح! هل الأعياد كلها مرافع وكرنفالات وجنون مشاعر يسيل فيها الفرح على الأرصفة؟ قصة العيد والإنسان تكشف أن وراء الفرح أبعاداً أخرى. أن وراء العيد أعماقاً ومرامي حيوية متصلة بطمأنينة البقاء الإنساني. وهي التي أدخلت العيد في أضلاع الدين... وأوصلت الفرح درجة البهجة القدسية...

من خلال الأديان القديمة: المصريون الأقدمون واللاحقون كانوا يعيدون لوفاء النيل. يوم يبلغ الفيضان أوجه. والهندوس كانوا وما يزالون عيدهم فيضان نهر الغانج الأقدس... ويطلقون المصابيح على شرف آلهة الخصب فوق الماء والبحر. والإغريق كان من أعيادهم الاحتفال بعودة آدونيس إلى الحياة من جديد في الربيع. والفرس ما يزال النيروز عيدهم الأكبر. ومثله شم النسيم. ومثله أعياد باخوس والقطاف وسكب الخمور... ترى ماذا تعني هذه الأعياد سوى التأكيد على أن ثروات الأرض قادمة. والفرح بأن موسم المؤن قد ضمن الحياة الرغدة للجماعة في السنة المقبلة؟

وحين يحتفل الصينيون بعيد «الشوحة» ويمتلئ الفضاء بالطائرات الورقية القزحية الألوان. ويرقص الأفعوان المقدس في الشوارع لطرد الشياطين، أو حين يجمع الساحر في القبيلة السوداء كل القبيلة على الرقص والأصباغ والجماجم ودق الطبل لطرد الأرواح، فماذا يفعل هؤلاء وأولئك سوى الدفاع عن الجماعة وبعث الطمأنينة فيها؟

وأنزلت الأديان السماوية على الناس فارتبطت الأعياد بالقيم الإلهية الكبرى صارت فرحاً بالمثل العليا. التي تنزلت بها هذه الأديان. واحتفالاً بمن تمثلت فيهم تلك القيم والمثل من كرام البشر... صارت الأعياد مناسبات لتأكيد الإيمان بتلك القيم والاحتفال بها. وماذا يعني عيد الميلاد، وعيد

الفصح، وعيد الغطاس. وعيد الصليب، وعيد البشارة، وعيد القيامة، غير هذا التأكيد؟ وماذا يعني عيد الفطر وعيد الأضحى والأعياد الإسلامية التي ظهرت بعدهما كعيد المولد النبوي، وعيد الغدير، وليالي الوقود، غير تجديد العهد والفرح بما آتانا الله به من الهدى والإيمان؟

وجاء العصر الحديث الذي نعيش بقيم إضافية للإنسان، اشتقها من نمو شعوره بإنسانيته. من إدراكه أنه أثمن كنز على الأرض. وكان لا بد لتلك القيم أن شاءت القرار في الناس أن تدخل هيكل الأعياد. أن تعمّد أعياداً، ذات طقوس وسدنة وأبطال... وهكذا درزت أيام السنة درزاً هنا وهناك بأعياد الحرية والاستقلال. فلكل أمة يوم وعيد. ولحقوق الإنسان عيد. وللأم عيد. وللوحدة عيد. وللشجرة. وللعلم. وللعمال... أعياد بعد أعياد. وانضم العيد إلى الإيقاع الإنساني ليكون الرباط الذهبي الذي يربط بين الناس وبين القيم التي يبدعون...

يبقى أن الإنسان كان الفنان الفنان في الاحتفال بالأعياد التي يقيم. طقوس الفرح كان لها ألف شكل ولون وموكب. منذ كان الإنسان يقفز في الكهوف فرحاً باصطياد ثور عصي، إلى اليوم الذي تسامت فيه المجتمعات الإنسانية أدياناً ونظماً وقيماً، ولكل جماعة طريقتها في التعبير عن الفرح، في إحياء العيد...

الرومان كان عيدهم ملاعب تضج بالوحوش والصراع المجنون، وخمر حتى الخمار، ومشاعل في ظلمة المعابد. والعيد في قلب القارة الأفريقية إيقاع راقص يرعب الغاب وهيمنة ساحر ورماح تحملها رماح.

وهو عند الصيني قصة أفعوان، وسراج أمام محراب الأجداد، ولحظة تأمل. وعند البوذي أجساد تتهادى بمئات الأقدام والأصابع. وفي المسيحية قداديس ومواكب وشموع وأنشودة شكر. ولقد نعرف أعيادنا نحن اليوم فهل أذكركم مواكب الخلفاء في الماضي بالقباء الأسود، والمنطقة المرصعة بالجوهر،

والقلنسوة الطويلة، وسلاسل الذهب في الصدور! والفيل أو الحصان الأبيض يتهادى بين مئات الحراس بالسيوف والرماح والألوية والرايات إلى المسجد الجامع، والطرق مزينة بالأقمشة الزاهية والطبول تدق مع الصنوج... فإذا قضيت الصلاة ذبحت الأضاحي أو وزعت الفطرة والهبات والخلع... والحلوى!

لقد يكون الكثير من بهجة الأيام الخالية قد ضاع في زحام الأيام.... ولكن ألست معي في أن أعيادنا احتفظت بأجمل ما يمكن أن تحتفظ به: بذكر الله فيها، وذكر الأجداد الذاهبين، وصلة الرحم، وإشاعة المحبة بين الناس؟ وبعد هذا فلكل عيده على طريقته...

ولا تسألني عن عيدي... إنه سري الذي أغلق عليه نافذتي والستائر!.

خط التقسيم

إذا قالوا لك أن أمريكا اللاتينية عالم شديد الإغراء، يبتلع من يدخله كبعض الرمال المفترسة أو بعض الكهوف السحرية في الأساطير، فصدق الخبر. وإذا قالوا لك إنه بلد شديد الحداثة حتى الوحشية، بقدر ما الشرق الأقصى. شديد القدم حتى الجلال. فصدق الخبر أيضاً... إنك في عالم مميز. وحتى اليوم لم تمتزج فيه بعد آلاء الطبيعة البدائية من غابة جهنمية ونهر جبار وقمم مدببة يسيل ثلوجها كالزبد في أشداق التماسيح، لم تمتزج مع الإنسان الذي يستوطنها من بقايا الهندي القديم والفاتح الإسباني ــ البرتغالي الأول، ومن الزنجي المجلوب، ومن الأجنبي الطامع؛ هذا إلى قبائل الأفاعي والفراش والنمل... ومن كل حشرة!

والذين يعرفون أمريكا اللاتينية أو شيئاً عنها يعرفون أنها مقسومة طولانياً إلى قسمين: شرقي يقارب في المساحة القارة الأوروبية إلا قليلاً، وتشغل معظمه البرازيل. ويتكلم سكانه البرتغالية. وأهله الأوائل من البرتغال!... وغربي يشمل باقي القارة. وهو يعدل أوروبا في المساحة ويتقسم سبع عشرة دولة. ويتكلم أصحابها الإسبانية. وأهله الأولون من الإسبان....

من ذا الذي يتصور أن المصادفة وحدها هي التي وزعت أمريكا اللاتينية هذا التوزيع وأعطتها هذا المصير الذي دمغها إلى الأبد؟ ومع ذلك فهذا هو الذي كان... وكان منذ خمسة قرون إلا قليلاً...

ففي سنة ١٤٩٢ عبر كريستوف كولومب المحيط الأطلسي إلى الغرب يبحث عن أرض الهند. وقد وجدها لحساب ملك إسبانيا. وقلقت البرتغال

أشد القلق فقد كانت بدورها تبحث عن طريق الهند. ولكن بالطواف حول أفريقية ولم تصل إليه بعد... وقام الخلاف على الأرض التي لم تكتشف بعد وعلى خيراتها التي لم تعرف بعد: لمن تكون؟ ووافق الطرفان بعد الجدل على الاحتكام إلى البابا!...

ولم يكن البابا الكسندر بورجيا أعلم من غيره بما وراء الأطلسي أو يعرف أين تبدأ الهند؟ وأين تنتهي؟ ولهذا وضع أمامه خارطة الأرض كما يعرفونها في عهده ـــ دون أمريكا بالطبع ـــ وتناول قلماً رسم به خطاً مستقيماً يمتد من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي ويمر بنقطة تبعد مائة فرسخ غربي جزر أصور وحكم أن الأرض التي تقع في شرقي هذا الخط الوهمي هي مجال الكشوف للبرتغال. وأما ما يقع وراءه إلى الغرب فهو للإسبان المجال. إنهم هناك السابقون... وكانت هذه هي المصادفة الأولى. لم يكن أحد يعلم أو يقدر أن البابا في ذلك الخط التعسفي قد أعطى أمريكا كلها للإسبان. كان يحسب أنه أعطاهم فقط شرق الهند الذي اكتشفوه. وسموه جزر الهند الشرقية. وترك للبرتغال مناطق الهند الغربية، في زعمه. والطريق الموصل إليها ـــ إن وصل ـــ حول أفريقية.

في السنة التالية طلبت البرتغال زحزحة هذا الخط نحو الغرب مسافة أخرى. وتوقيع معاهدة بين البلدين على ذلك. ووقعت معاهدة توردیسیاس سنة ١٤٩٤ لأن إسبانيا بدورها لم تكن تعلم أن هذه الزحزحة للخط البابوي سوف يجعل للبرتغال دون أن تعلم البرتغال حصة في أمريكا هي: البرازيل... وكانت هذه هي المصادفة الثانية.

أما الثالثة فكانت بعد خمس سنوات سنة ١٤٩٩ من ذلك: كان القبطان البرتغالي ألفاريس كابرال يتجه إلى الهند في رحلة عملاقة يقتفي بها طريق فاسكودي غاما الذي طاف، في تلك السنوات نفسها حول رأس الرجاء الصالح. ووصل بحر العرب والهند... وأراد كابرال أن يتفادى ظروف

الملاحة الصعبة أمام سواحل غينيا فإذا بالتيارات والعواصف تقذفه غرباً إلى البر الأمريكي المقابل لأفريقية والقريب منها . نزل هناك . وأقام احتفالاً دينياً متكلفاً ادعى فيه حق امتلاك هذا البر الجديد الذي تصور أنه جزيرة . وسماه جزيرة فيراكروث . ثم عاد بسفنه ليكمل رحلة الهند ...

ولم تأبه البرتغال كثيراً لهذا الاكتشاف لانشغالها بمغامراتها التي بهرت الأبصار في بحر العرب وفي الهند ... ولأنها لم تعرف أنها اكتشفت البرازيل !! كل ما فعله الملاحون البرتغاليون خلال ثلاثين سنة بعد ذلك أنهم كانوا يذهبون إلى هذه الجزيرة التي ظلت تتسع حدودها أمامهم باستمرار وكانوا يحملون منها الببغاوات الزاهية الريش والقردة اللعوب ، والخشب ذا اللون الناري الذي كانوا يسمونه برازيل ..... والذي أطلقوه على هذه الأرض فاسمها إلى اليوم البرازيل ... وبعد ذلك بكثير ، عرفوا أنهم على البر الأمريكي .

وفي الوقت نفسه كان الإسبان مشغولين بالذهب الذي وجدوه في المناطق الغربية من أمريكا . لدى الممالك الجبلية القديمة الراقية الحضارة في المكسيك والبيرو (لدى الأزتيك والمايا والإنكاس) .

ومع أن الإسبان حاولوا اختراق خط التقسيم الموهوم متجهين إلى الشرق مرات بعد مرات . والبرتغال بدورهم حاولوا المحاولات ذاتها مرات إلا أن مصادفة رابعة وقفت في وجه الطرفين وجعلت الخط يتحول إلى واقع جغرافي بشري ثقافي ...

هذه الصدفة الرابعة هي بحر من الشجر سموه الأمازون هو أكبر امتداد غابي في الدنيا يجري فيه أكبر نهر في الدنيا أيضاً !..

ترى بعد هذا ... ألم تكن المصادفة هي التي صنعت البرازيل ؟ وصنعت الدول الأمريكية ؟.

القطار الذي حمل الثورة

كان ربيع سنة ١٩١٧ في أوائله في جنيف بسويسرا. ولكن جنيف مع ذلك كلها كانت مزدحمة بالأجانب أكثر من أي صيف... فيهم الألمان والروس والفرنسيون. ومن كل ملة معظمهم اضطر أن يعتاد الثلوج السويسرية الشتوية منذ سنة ١٩١٤ لأنهم لا يريدون أو لا يستطيعون العودة لبلادهم. وسويسرا كانت تستقبل باستمرار المزيد من الهاربين إليها إذ ذاك... من كل أنحاء أوروبا لا لأنها الفردوس الأرضي ولكن لأن أوروبا كانت في تلك الآونة في أوج الجنون الوحشي. الحرب العالمية الأولى جعلتها بحراً من القنابل والدماء والدخان والجثث المتعفنة والنيران و.... وسويسرا كانت الجزيرة التي ما تزال خضراء في ذلك العباب من الغيم الأسود.

في إحدى الغرف المطلة على بحيرة جنيف كان ثمة كهل روسي هارب منذ زمن طويل من بلاده. منذ سنة ١٩٠٠ هرب بعد ثلاث سنوات سيبيرية، كان مقره هناك. دوائر الأمن كانت تعرفه جيداً. إنه فلاديمير أوليانوف الذي استطاع الفرار من المنفى القيصري في سيبيريا. ولجأ إلى جنيف. أما الناس فلم يكونوا يعرفون إلا أنه لاجئ من آلاف اللاجئين الروس وأنه صاحب أفكار ثورية!..

كان هذا الرجل يعيش منذ مطلع شهر مارس في تلك السنة على أعصابه.

لم يعد يرى من سويسرا شيئاً. كانت عيناه وقلبه في أذنه تنتظر أخبار بلاده... وصلته أولاً أنباء الهزائم التي منيت بها روسيا القيصرية أمام الجيش

الألماني . بلغه أن قتلاها في الحرب بلغوا أربعة ملايين . أن الطعام فقد . أن الناس يلفون الخرق البالية بدل الأحذية . أن روائح الاختلاسات ، وفضائح البلاط ، وقصص راسبوتين الراهب الوحشي ، تزكم الأنوف ، وسمع أن القيصرة تفاوض الألمان الذين اكتسحوا نصف روسيا !

ثم سمع أخيراً انفجار المظاهرات مع أول الربيع ثم احتجاب الصحف ثم قيام الإضرابات بكل مكان ...

بعد أسبوع فقط سمع أن القيصر فشل في قمع هذا كله ، فتخلى بكل بساطة عن العرش كما لو كان يتخلى عن قيادة كتيبة ! وأن الجيش الروسي بدأ جنوده بالفرار من الحرب . وأن الجنود والعمال شكلوا مجالس محلية (سوفيات) وتنادوا لعقد مؤتمر عام شعاره توفير الغذاء والكساء للجميع . وتوزيع الأرض على الفلاحين . والخروج من الحرب . كان اللاجئ أوليانوف يعرف أن الذين يعلنون هذه الأمور هم جماعة حزبه ، والجماعة التي هو منها وفيها . وكانت له آراؤه في توجيه الثورة . فهو يعتبر الأعمال المسلحة جزءاً من العمل السياسي طالما كتب في هذا وقال إن القوى الثورية يجب أن تتركز في المناطق الحاسمة للصراع . وإن الهجوم هو أحسن وسائل الدفاع . وإن المباغتة عنصر أساسي لكسب المواقف ...

ولكن ... أين سياسة روسيا منه؟ وكيف يصل إليها وكل الطرق مغلقة؟ والألمان الأعداء يحتلون كل شبر من أوروبا بين جنيف والجبهة الروسية ... كان واثقاً من قدرته على قيادة الثورة ويعرف أنهم هناك ينتظرونه ولكن ... أين روسيا منه ؟.

وفجأة جاءته الصدفة التي لم ينتظر . مندوب من القيادة الألمانية يزوره . ويبلغه أنه إن شاء السفر إلى روسيا فإن قطاراً خاصاً سوف يوضع تحت تصرفه ! لم يتردد الرجل وبعد أيام فقط في ٧ أبريل ــ نيسان كان القطار يحمل

الثائر إلى الثورة وكان اليانوف ينزل في بطرسبورغ (التي أضحى اسمها فيما بعد لينينغراد).

كانت الأسرة القيصرية قد سقطت منذ ثلاثة أسابيع والبلاد تفتش عن طريقها. والتقى اليانوف بالشخصين الآخرين اللذين شكلا معه ثالوث الثورة ودماغها المدبر: برونشتاين وتيساريونوفيتش.... سلسلة التحركات والمؤامرات والتظاهرات، الإضرابات، استقالة الجنرالات، وحوادث الاغتيال، وزحوف الفرسان، ومجالس العمال، ومشاكل الجوع والبطالة، والإصلاح الزراعي كلها اشترك فيها هذا الثالوث حتى الأذقان!... وبعد سبعة أشهر (في نوفمبر من تلك السنة) وجدوا أنفسهم الكتلة المنظمة الوحيدة في الساحة فدبروا انقلاباً علنياً أعطوا أوامره لأنصارهم بلغة واضحة وعلى الهاتف وأزاحوا الحكومة المؤقتة وتسلموا الحكم باسم الثورة البولشفية!

الذين بحثوا الثورة الروسية هذه كثيراً ما يقفون عند القطار الألماني ويتساءلون: لو أن ألمانيا لم تقدم هذا القطار فماذا كان مصير هذه الثورة؟

بقي أخيراً أن نعرف أن أوليانوف هو لينين وأن برونشتاين وتيساريونوفيتش هما تروتسكي وستالين!

الصقر القرشي

في سنة ١٣٢ للهجرة/سنة ٧٥٠ للميلاد، حين دخلت الأعلام السوداء إلى الشام فأعلنت نهاية الحكم الأموي وبدء العهد العباسي في الإسلام، كانت تلك الأعلام أول أعلام ثورية تدخل الشام، قاعدة الحكم الأموي، منذ قام الحكم الأموي. الثورات الأخر كانت تقوم بكل مكان وقد تستولي على عدد من الأقاليم. أما الشام فبقيت لا تمس. ظلت القاعدة الصلبة للخلفاء من بني أمية... ما أزاحهم عنها شيء!... جند الثورة العباسية كان أول جند معاد للأمويين، لا يدخلها فقط، ولكن يضع السيف في البيت الأموي، في مذابح ما تزال ترتعش منها أوراق الكتب الصفراء... الوحشية التي رافقت تلك المذابح لم تكن بنت ثأر قديم، أو عقوبة لجريرة معينة مبينة، ولكنها كانت بنت الخوف بلى!... الخوف! أن يبقى من هذا البيت من يقوم للملك أو من يستطيع المطالبة بالملك. كانت مذبحة نهر أبي فطرس المشهورة التي قتلت ٧٣ رأساً من رؤوس بني أمية عملية استئصال دفاعية مقصودة!...

فابسط النطع وضع السيف حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

وكان أولاد الخلفاء من بني أمية في الشام كثيرين... وبكل مكان. ولهذا ركض الإرهاب في الأزقة والقرى، غولاً عاصفاً يبحث عن الضحايا. ركض يذبح ويذبح... يحاذر، والأشداق دامية، أن يفلت من براثنه عصفور...

كان العباسيون يخططون للغد. ولامتلاك الأرض والغد. ويقدرون... فتضحك الأقدار!.. ونعرف جميعاً أن الملك الأموي عاد فظهر كرة أخرى في

الأندلس. وكان العديل الذي يقابل الملك العباسي، على الجناح الغربي لبلاد الإسلام. ونعرف أنه كتب ملحمة الشموس الأندلسية، التي ما مثلها ملحمة، في تاريخ العرب والإسلام

لها الحب والكأس والمزهر وللناس منها الصدى المسكر

وإنما بدأت هذه الملحمة كلها بمصادفة تبعتها مصادفات... ولن أروي القصة. سأترك لصاحبها صقر قريش الذي تعرفون، عبد الرحمن الداخل حفيد هشام بن عبد الملك أن يرويها بنفسه... فقد رواها بنفسه. كان يوم ظهرت الأعلام السود ابن سبع عشرة سنة!

وله كشباب ذلك العهد ضفيرتان... وكان في زيارة أخيه يحيى في قرية بفلسطين قرب الرملة. فلما كانت مذبحة نهر أبي فطرس هناك. واختطفوا أخاه يحيى من القرية. كان عبد الرحمن صدفة في الصيد. ووقع الخبر له في الليل فهرب. يقول عبد الرحمن: «... وخرجت حتى صرت في قرية على الفرات ذات شجر وغياض وأنا والله ما أريد إلا المغرب (وأين المغرب والمسودة في فلسطين ومصر...) وبقيت مختبئاً قرابة السنة فإني لجالس في القرية (وهي قرية دير حنا على وادي الفرات شرقي حلب) في دار لنا فيها لا نعلم أقبال المسودة. فكنت في ظلمة البيت وأنا رمد شديد الرمد. ومعي خرقة سوداء أمسح بها قذى عيني. والصبي سليمان (ابني) يلعب وهو ابن أربع سنين أو نحوها. إذ دخل الصبي باب البيت فترامى في حجري فدفعته لما كان بي. ثم ترامى. وجعل يقول ما يقول الصبيان عند الفزع. فخرجت فإذا أنا برايات مطلة. فلم يرعني إلا دخول أخي فلان الصبي يقول: يا أخي رأيت المسودة!! فلم أدرك شيئاً أكثر من دنانير تناولتها ثم خرجت أنا والصبي أخي، وأعلمت أخواتي بمتوجهي. وأمرتهما أن يلحقنني غلامي بما يصلحني إن سلمت! فخرجت حتى اندسست في موضع ناء عن القرية وأقبلوا فأحاطوا بالقرية ثم بالدار فلم يجدوا أثراً. ومضينا حتى أتيت رجلاً على شاطئ الفرات

وأمرته أن يبتاع لي دواباً وما يصلحني . فأنا أرقب ذلك إذ خرج عبد له فدل علينا العامل . فأقبل إلينا . فوالله ما راعنا إلا بجلبة الخيل إلينا ... فخرجنا نشتد على أرجلنا . وأبصرتنا الخيل فدخلنا بين أجمة على الفرات . واستدارت الخيل فخرجنا . وقد أحاطت بالأجمة فتبادرنا وسبقناها إلى الفرات . فترامينا فيه ، وأقبلت الخيل فصاحوا علينا : ارجعا لا بأس عليكما . فسبحت وسبح الغلام أخي فلما سرنا ساعة . سبقته في السباحة وقطعت قدر نصف الفرات فالتفت لأرفق به وأصيح عليه ليلحقني . فإذا هو والله لما سمع تأمينهم إياه خاف الغرق . فهرب من الفرات إلى الموت فناديته : أقبل يا حبيبي إلي . فلم يأذن الله بسماعي . فمضى ومضيت عبر الفرات . وهم بعضهم بالتجرد ليسبح في إثري (ورماني بعضهم بالسهم فلم يصيبوني) وأخذوا الصبي فضربت رقبته وأنا أنظر وهو ابن ثلاث عشرة سنة ... ثم مضيت إلى فلسطين ولحق بي غلامي وغلام شقيقتي ، ومع المولين بعض النفقة وشيء من جوهر ... حتى أتيت أفريقية » !

هل انتهى بذلك أمر الصدفة مع عبد الرحمن؟ كان بني أمية قد هربوا أيضاً إلى أفريقية فخانهم واليها عبد الرحمن بن حبيب الفهري على نفسه فقتل بعضاً منهم ... ويقولون إن يهودياً كان تنبأ لابن حبيب أن رجلاً له ضفيرتان من أبناء الملوك سيملك الأندلس فأطلق ضفيرتين له ، لعله ! فلما وصل عبد الرحمن الداخل الأموي ، وله ضفيرتان ، قرر قتله بدوره ! فلم يعدم الصقر الأموي من أنذره بالأمر . فنجح في الهرب كرة رابعة من القيروان . حتى نزل في قبيلة مكناسة عند شيخ من رؤساء البربر يعرف بأبي قرة واهتدى أعوان ابن حبيب إلى مقره وداهموا المنزل فكان أن خبأته زوجة أبي قرة تحت ثيابها ! ...

ونجا عبد الرحمن من الموت كرة خامسة ووصل الصقر الهارب في نهاية هذه المغامرات مع الموت إلى الأندلس ... ليبدأ ملحمة الشموس الأموية فيها ولتبنى على أيدي من بعده : قرطبة وإشبيلية والزهراء والحمراء وحقول الأقمار والمآذن المعممة بألف مجد !.

مصادفتان

حديثنا الآن عن مصادفتين .... لا واحدة ...

هما مصادفتان توأمان : واحدة أيام الإقبال على يد عبد الملك والأخرى في إدبار الأيام ، عصر الحروب الصليبية ...

عبد الملك بن مروان يعرف كل الناس أنه أحد ثلاثة كانوا أبرز الخلفاء الأمويين . ويدعى عن حق أبا الخلفاء لأنه أربعة من أولاده وصلوا الخلافة . ومع ذلك فالقلائل يعرفون أنه كان من فقهاء المدينة . ومن فقهائها الأربعة المعدودين . شهد به أحد التابعين فقال : لقد رأيت المدينة وما بها شاب أشد تشميراً ولا أفقه ولا أنسك ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان . والأقلون الأقلون هم الذين يعرفون أن عبد الملك كان قبل ذلك من الجند المحاربين . وقد قاتل مجاهداً في فتح تحت قيادة معاوية بن جديج التجيبي ، وهو لما يزل في شرخ الشباب . وهو فاتح قلعة جلولاء الأفريقية ....

ويذكرون لهذا الفتح صدفة تروى :

القلعة كانت من أهم الحصون في خط الدفاع الثاني عن أفريقية ... (أفريقية في تلك الأزمان هي تونس وبعض طرابلس والجزائر) . وكان الخط الأول ، البحري ، عصياً على العرب الفاتحين لفقدهم الأسطول في ذلك الوقت المبكر من تاريخ الإسلام . وضرب الجيش العربي الإسلامي حصاره على قلاع الخط الثاني . وقاومت جلولاء بين هذه القلاع ، أعنف المقاومة . واستمر الحصار طويلاً دون طائل . وتتابعت المعارك بين كر وفر أسابيع موجة بعد موجة كان

الفاتحون يهجمون، وفي كل مرة كان يلحق بالجيش المسلم الكثير من الخسائر .. وكان بين القتلى والجرحى العديد من كبار المحاربين ....

يقولون «وخرج عبد الملك بن مروان في أحدى الهجمات على جلولاء بسرية من الجيش في ألف رجل، فلم يصنعا شيئاً. وانصرف راجعاً. فلم يسر إلا يسيراً حتى رأى في ساقة الناس (لدى الجماعات الأخيرة من الجيش) غباراً شديداً فظن أن العدو قد طلبهم. فكر جماعة من الناس، يعاودن لقاء العدو. وبقي من بقي على مصافهم. وتسرع المسرعون فإذا مدينة جلولاء قد سقط حائطها ... لوحده! فدخلها المسلمون وغنموا فيها من الغنائم ... ما كفى أن يصيب كل رجل من الجيش كله، لا من سرية عبد الملك فقط، مائتا دينار. وضرب للفرس بسهمين ولصاحبه بسهم ... وكان نصيب عبد الملك ستمائة دينار ... كغيره من الجند».

كان هذا أيام الفتوح الكبرى، وأيام الإقبال والإيمان الأول .... ومن الغريب أن هذه الصدفة نفسها تكررت مرة أيام الإدبار والهجمات الصليبية على البلاد الإسلامية ... وكانت نتائجها ... مأسوية!

كان ذلك في أوائل القرن السادس الهجري مع مطالع الحروب الصليبية التي نعرف، وكان في جزر الباليار، الجزر التي تتوسط الحوض الغربي للبحر المتوسط بين المغرب والأندلس وفرنسا وإيطاليا. كانت الجزر في ذلك الوقت، لسلطان المرابطين في المغرب، يشرفون منها على البحر كله تجارة وسياسة ونفوذاً، فيفرضون السلم الذي يريدون ويؤدبون من يؤدبون! ...

وضاقت البابوية، وضاقت المدن التجارية الإيطالية بهذه القــوة الإسلامية، وكانت بيزا أكثرها ضيقاً وحقداً فخرجت بدعوة من البابا ومباركته في أسطول بلغ عند التجمع خمسمائة سفينة. وانقضت على أقرب الجزر تناولاً .. وفوجئت بعد الذبح والقتل أن من قتلتهم وذبحت كانوا من النصارى. وأنهم ممن يتبعون في الإقطاع أمير قشتالة! .. وأسرعت بيزا لاسترضائه بأن

دعته للمشاركة في الحملة . ويكون القائد لها . وله الغنيمة التي يريد . وبمباركة البابا نفسه ! .. وأضاف القشتالي جنده وأسطوله إلى الحملة وتشكل بذلك حلف صليبي نزل على (مايورقة) أكبر جزر الباليار وضرب الحصار على عاصمتها بالما ! ..

في قصر المدينة ، الذي ما يزال قائماً إلى اليوم ويحمل الاسم نفسه ، كان حاكم الجزيرة هو ناصر الدولة مباشر . واتخذ الرجل كل مايستطيع لدفع الهجوم والحصار ولكن القوى الصليبية التي تكالبت كانت أقوى منه بكثير ... وبعث إلى سلطانه في المغرب يستنجد . وبعث إلى ملوك الطوائف في الأندلس يدعوهم للهجوم على أرض قشتالة . لعل أميرها يخاف على ممتلكاته في البر الإسباني فينسحب ...

ولكن كان على أمير الدولة أولاً أن يستطيع الصمود ... ريثما ! وصمد الرجل ثم صمد وصمد . حتى انهدت قواه ...ــ وتوفي بينما كان المهاجمون يستولون على السور الأول من الأسوار الثلاثة للمدينة . واختار الجند الإسلامي للقيادة رجلاً يعرف بأبي الربيع سليمان . فقاتل وقاتل حتى وقع في الأسر ! وسقط السور الثاني للمدينة . وجاء القائد الثالث فعرض على المهاجمين إطلاق الأسرى المسيحيين لديه وكانوا ثلاثين ألفاً . وعرض التعويض عن تكاليف الحملة وإعطاءهم المؤن اللازمة للعودة ...

وتحمس لهذا العرض أمير قشتالة لأن الأخبار وصلته بتهديد بلاده . واجتمع مجلس الحرب الصليبي يقرر الصلح ويكاد يوقعه ... وفي تلك الأثناء بالذات سقط بالصدفة أحد الأبراج الأساسية في بالما . واندفع من خلال الثغرة مقاتلة الصليبيين ! ... فترك القادة غرفة الاجتماع ليندفعوا مع المندفعين ! وكانت النتيجة ... ذبح معظم سكان الجزيرة وأسر ١٥ ألفاً من المسلمين وإحراق بالما وتدمير مكتبتها ...

ولما وصل أسطول المرابطين للنجدة كان الصليبيون المدمرون قد هربوا بالغنائم ... ولم يجد الأسطول سوى الخرائب وبقايا الحريق !

هما مصادفتان توأمان ....

واحدة في دور الإقبال وأخرى في الإدبار

وكم بين إقبال وإدبار !.

الغافقي وزلقة المهر

الذين يتحدثون عن الأمجاد الأولى، عن حوافر المهور تدق ما بين حوض السين وحوض السند، وعن رقص الألوية، وزغردة النجوم، ورفة السيف العربي بألف جناح، يذكرون دون شك اسم عبد الرحمن الغافقي. إن له في التاريخ العربي الإسلامي طيف الأبطال المأسويين في التراجيدية اليونانية. ومشروعه الطموح الذي يرجو به غزو أوروبا من الغرب إلى الشرق حتى يطوق القسطنطينية من الخلف ويضعها بين فكي الكماشة العربية الإسلامية ما يزال يأخذ في الكتب شكل الحلم الموءود...

كل ذلك صحيح. ولعل واقع الرجل أروع وأعظم من ذلك بكثير. فهو من التابعين وكان لهباً، أو كاللهب في الميادين. كما كان الوالي السمح الصلب في وقت معاً. ولكن سمعته الكبرى إنما جاءت من أنه انهزم لا من أنه انتصر.... وجاءت من الأعداء لا من أهله وقبيلته... المؤرخون المسلمون ما كتبوا عنه إلا القليل، وإلا الأسطر المعدودة. أما الأعداء فهم الذين ضخموا الاسم لتضخيم النصر الذي أحرزوه عليه. جعلوه رمز الهزيمة ليكون صاحبهم الذي أخذ عليه المعركة رمز الانتصار والمجد... وهذه الصدفة هي التي جعلته الشهير الوحيد في مجموعة من نجوم الجهاد كل واحد فيها غافقي أو كالغافقي....

ويمر في هذه المواكب المجاهدة المظفرة، في «الأرض الكبيرة»، كما كانوا يدعون أرض فرنسا في تلك الأزمان، أطياف الأبطال «كعمالقة الأساطير».

يمر اسم الحر بن عبد الله الثقفي أول من عبر (البرتات) جبال البيرنة

اليوم إلى الأرض الكبيرة ... ويمر طيف عقبة بن الحجاج السلولي الذي بلغ بالمسلمين ثغر أربونة (ناربون اليوم) عبر جبال البرتات

ويمر سواد السمح بن مالك الخولاني الذي افتتح طرسكونة (تراسكون) وطولوشة (تولوز) وجعل أربونة قاعدة العرب هناك ... ويمر خيال عبد الملك بن قطن الذي أخضع أرض البشكنس (الباسك اليوم) ويمر عتبة ابن سحيم الكلبي الذي فتح الجنوب الفرنسي (سبتمانية ..)

وتمر مواكب أولئك الذين أقاموا دولة القلال . وأوغلوا حتى أعالي حوض الرون . وأولئك الذين أقاموا دولة سبتمانية أكثر من مائة سنة ...

هؤلاء وأمثالهم كانوا وقود الجهاد في تلك الأرض البعيدة وكلهم استشهدوا هناك .... تماماً كما استشهد الغافقي . وبقوا على الأسطر القليلة التي منحت لهم في التاريخ العربي الإسلامي .... إلا الغافقي فقد جعل الفرنجة لهزيمته ألف معنى . ومنحوها ألف بعد ... ليحمل انتصارهم عليه المعنى الديني والسياسي في وقت معاً ... وليجدوا في تاريخهم نقطة ارتكاز وانطلاق ....

وكيف كانت قصة هذه الهزيمة ؟ كانت بدورها بنت المصادفة السيئة : كان الغافقي في جمهرة المجاهدين في تلك البقاع من الأرض الكبيرة سنين طويلة قبل أن يصبح والي الأندلس سنة ١١٠هـ /٧٢٨م . وقد راقب تعثر الفتح في السنوات الأخيرة فأراد أن يحسم الأمر بموقعة تعطي العرب المسلمين الأمان والاستقرار في الجنوب الفرنجي ! وفي سنة ١١٤هـ/٧٣٢م اجتاز جبال البورتات بالجند الكثيف ، كالريح الصرصر تقتلع ما وقع أمامها . جعل طريقه في تلك السهول التي يدعوها الفرنسيون حتى اليوم أقطانية ... وهي وإن كانت مزروعة بالأديرة والكنائس إلا أنها أيضاً مدروزة بالغابات والدمار ! واكتسحها الغافقي إلى مدينة (برديل = بوردو) على مصب نهر الغارون . فدخل هذه المدينة عنوة ... لم تجرؤ جيوش دوق أقطانية على حمايتها من السيوف : واستصرخ الدوق لحماية أراضيه جاره : (قارلة) سيد الشمال

الفرنسي وهو الذي سوف يعرف في التاريخ الفرنجي باسم شارل مارتل أو المطرقة.

وبينما كان الغافقي يسير نحو مدينة تور في الشمال عرف بتحرك قارلة نحوه في جيش ضخم. وصفه الفرنجة أنفسهم بأنه جمع مختلف العشائر الجرمانية المتوحشة، والعصابات المرتزقة فيما وراء الرين. يمتزج فيه المقاتلة من أمم الشمال كلها كما يضم جنداً غير نظاميين. نصف عراة يتشحون بجلد الذئاب وتنسدل شعورهم المجعدة فوق أكتافهم العارية .. «ومع ذلك فقد احتل الغافقي مدينة تور متقدماً نحو الشمال، ثم كان اللقاء... وامتدت المعركة عشرة أيام من رمضان سنة ١١٤/٧٣٢م لا يوماً ولا يومين وتعددت مواقعها في خط يمتد تسعين كيلو متراً ما بين مدينة تور حتى بلدة بواتيه على نهر اللوار مما يدل على أنها لم تكن في الأصل هزيمة أبداً... وأنها كانت تقدماً وانتصارات غير حاسمة في أيامها الأولى! .. إلى أن جاءت الصدفة المأساة: أحس الغافقي بحركة التفاف فرنجي على مخيمات الجيش الإسلامي تراجع خلالها قسم منه إلى الوراء. فلما انصرف يرد المنكفئين ويسوي الصفوف زلق به فرسه في الدماء فسقط!...

وفي تلك اللحظات جاءه السهم القاتل.

وكان مصرع القائد مصرع الحملة... فما أن حال الليل بين الفريقين وشاع خبر المصرع حتى ترك الجند الإسلامي مخيماته قائمة على حالها، للتضليل وانسحب إلى الجنوب. ولم يجرؤ الجند الفرنجي على الاقتراب منها عدة أيام!

هذه هي المعركة التي عرفت في التاريخ العربي بوقعة البلاط أو غزوة البلاط أو بلاط الشهداء وأما الغربيون فيعتبرونها نهاية المد الإسلامي في الفتوح، والموقعة التي أنقذت «الحضارة الغربية» من البربرية الإسلامية.

ولقد كانت صدفة من زلقة حصان... وليسوا بالقلائل من الأوروبيين أنفسهم الذين يعتبرون نصر قارلة أشأم لحظة في التاريخ الأوروبي!....

مصادفة تنقلب نكبة

... دار الحديث بيني وبين صاحبي أيضاً وأيضاً في مصادفات التاريخ فقلت إليك حكاية أخرى .... من المصادفات ... في مطلع القرن الحادي عشر .

كان الصراع على أشده بين الدويلات الإيطالية التجارية (بيزا . جنوه . والبابوية) وبين مجاهد العامري صاحب دانية على الساحل الأندلسي الشرقي وجزر الباليار .

سبب الصراع وثمنه هو السيطرة على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط .. وقال صاحبي : هوناً ما . ومهلاً . نتوقف قليلاً عند هذه الأسطر التي تشبه الطلاسم عندي . أو الحديث عن بلاد الواق واق ... ما بيزا وجنوه والبابوية قبل ٩٠٠ سنة ؟

ومن مجاهد العامري الذي تذكر ؟ وما هذا الصراع وما قيمته ؟ كأنما تحسب نفسك تتحدث عن نزاعات الدول الكبيرة في هذا العصر ... ومن يسمع يخل ! ..

قلت : بل إنها كانت بالفعل نزاعات كبيرة لدول كبيرة في ذلك العصر .

العالم كله إذ ذاك لم يكن سوى البحر الأبيض المتوسط بما حوله . وأرض الخلافة العباسية والهند والصين ... ونزاع السيطرة على الحوض الشرقي للمتوسط نزاع على الربع الأخير من خطوط التجارة العالمية . ولعله أهم هذه الطرق هناك . في ذلك البحر ما بين المغرب الإسلامي والأندلس وفرنسا

الكارولنجية وإيطاليا وفي جزر هذا البحر: (الجزر الشرقية) الباليار. قورسيكا. سردانية. صقلية كانت تمر دورة الذهب العالمية: يأتي الذهب مما وراء الصحراء الأفريقية ليصب عبر المغرب في أوروبا الغربية، يشترون به الفراء والخشب والرقيق.. وتدفعه أوروبا بدورها إلى القسطنطينية مقابل التوابل والبخور وبضائع الشرق التي يشتريها الروم بدورهم من التجار المسلمين في الخليج والشام ومصر. وهؤلاء يأتون ببضائعهم الثمينة بدورهم أيضاً من الهند والصين....

أما بيزا. وجنوه ونابولي وروما البابوية، هذه المدن التي تحتويها إيطاليا اليوم فلم تكن مدناً. ولكنها كانت قواعد برية لأساطيل تجارية واسعة تجوب البحر المتوسط. وتقاسم المسلمين تجاراته. كل مدينة منها جمهورية أوليغاركية يسيطر عليها التجار أصحاب الأموال والأشرعة... جمهوريات المدن الصغيرة هذه هي التي حملت الحروب الصليبية على أكتافها. وهي التي حركتها ونقلت رجالها وأخذت غنائمها... وإنما بدأت هذه الحروب في نهاية هذا القرن الذي نتحدث عنه الآن القرن الحادي عشر واستمرت مائتي سنة بل أكثر منها. بعد ذلك!...

ويبقى مجاهد العامري!... فسوف تعرف مجاهداً العامري في أعماله. هذا البطل القديم، كان في دنيا الجهاد الإسلامي أسطورة ملأت العالم المسيحي في أيامه رعباً وأما في دنيا السياسة فقد بنى إمبراطورية على الماء ما بين الأندلس وجزر الباليار وإيطاليا... وكان رعب البحار على مدى خمس وثلاثين سنة. وإلى هذا وذاك، فقد كان للعلم ورعاية العلماء فهو «المأمون» الصغير الأندلسي... في علوم الدين والآداب، وفي احتضان العلماء والأدباء وأهل الفنون...

وقف مجاهد في النصف الأول من القرن الحادي عشر لكل القوى الأوروبية مجتمعة. ومن عاصمته دانية، على الشاطئ الشرقي للأندلس كان

يدير المعركة الخطرة لفرض سيطرة الإسلام على الحوض الغربي كله من البحر المتوسط . « غزاة البحر » هذا كان همهم . وهذه أعمالهم . وكان مجاهد أول من نظم هذه الأعمال في الأندلس . ما كان لهم قبله من عناية كبيرة بالبحر لا غزواً ولا دفاعاً .. ولكن مجاهداً كان يعرف أن ثمن ذلك هو السيطرة على الخطوط التجارية في البحر

ولعبت المغامرة في رأس مجاهد . ورؤوس الأبطال ملعب للمغامرات . فانطلق بجيش ضخم على أسطول ضخم صوب البر الطويل (إيطاليا) يريد مباغتة بيزا . وانتصر في الطريق على سردانية ونزل على نهر الأرنو . ولكن المباغتة كشفت . ودوت الأبواق . واحتشدت الحامية . وانطلق السكان من بيوتهم إلى السلاح . ووصلت النجدات من القرى المجاورة ومن المدن وليس بين مجاهد وبين بيت الحاكم في المدينة سوى رمية حجر . فلما وصلت القوات البابوية اضطر مجاهد أن ينسحب بعد أن أحرق الحي ثم ركب البحر ... كان في خاطره حلم لم يتحقق هو تطويق حوض البحر المتوسط من الشرق . ومات الحلم ... وأقامت البابوية على الفور حلفاً جمعت فيه قواتها إلى أساطيل بيزا وجنوه ولاحقت على الماء أسطول مجاهد إلى سردينية ... وشعر مجاهد ألا طاقة له لهذا الحلف المثلث وبينه وبين دانية مسافات من الماء فآثر الفرار ...

ولكن ما إن عبر بأسطوله مضيق بونيفاشيو (بين سردينيا وكورسيكا في الشمال) في طريقه غرباً إلى ميورقة والأندلس حتى وقعت المصادفة القاتلة ... وكانت مصادفة أقسى من كل ما جابه وقاسى . هبت العواصف الطاغية بالسفن تلعب بها على وجه الجلد ، وفي ملتف الموج . وتهزأ بالأشرعة وبالمجدفين . ولجأ مجاهد إلى إحدى الجزر الصغيرة رغم نصيحة قائد أسطوله أبي خروب بألا يفعل . ودفع ثمن هذه المخالفة غالياً جداً . وجد نفسه مرة أخرى بين نيران ثلاثة : العاصفة والسردانيين والسفن التي تتحطم أمام عينيه ! تدفعها العواصف للاصطدام بعضها ببعض ثم تدفعها الأمواج إلى الشاطئ حطاماً .

تحالفت الطبيعة والعدو والمتمردون ضد مجاهد. وكان السردانيون والقورسيقيون على جانبي المضيق يأسرون ويقتلون من يلقي إليهم به الموج وسفن الأسطوليين البيزي والجنوي تسد في وجهه طريق العودة شرقاً وغرباً... المسلمون دعوا هذه الجزيرة فيما بعد بجزيرة الشهداء!

يصف هذه الكارثة أبو الفتوح ثابت الجرجاني وكان شاهد عيان لها فيقول: «... لما حصل في ذلك المرسى هبت ريح المسترال فجعلت تقذف مراكب المسلمين مركباً مركباً إلى الريف (البر) والروم وقوف لا شغل لهم إلا الأسر وقتل المسلمين. فكلما سقط مركب بين أيديهم جعل مجاهد يبكي بأعلى صوته. لا يقدر هو ولا غيره على أكثر من ذلك. لارتجاج البحر وزيادة عصف الريح. ويقبل علينا أبو خروب منشداً:

بكى دوبل لا أرقأ الله دمعه ألا إنما يبكي من الذل دوبل

ولم يتخلص مجاهد من الأسر في هذه المأساة إلا في يسير من السفن كانت خمساً فقط مع أربعة مراكب. وكانت هذه هي بقية العمارة التي كانت تحمل مع مجاهد ثمانية آلاف فارس. أما الجماعة الباقية فقد وقعت في الأسر. وكان بين الأسرى نساء مجاهد وبناته وابنه علي وأمه جود النصرانية!

عاد مجاهد من غزوته هذه وقد دفن إلى الأبد حلمه في تطويق المتوسط لكنه فوجئ بآخر المصادفات: في ميورقة: الرجل الذي جعله خليفة لأنه من بقايا الأمويين والذي استنابه عنه في الجزيرة وفي دانية على البر الأندلسي كان قد تمرد عليه! ونصب نفسه بدلاً عنه... وكان عليه أن يبدأ العناء من جديد ليقبض على هذا المتمرد عبد الله المعيطي ويرسله على إحدى السفن إلى بجاية في الساحل الأفريقي حيث قضى بقية حياته معلماً لأولاد البربر!

الهام أن صورة مجاهد في المصادر الأوروبية لا تحفظ صورة المصادفات ولا المآسي التي قاساها الرجل ولكنها تحفظ فقط أخبار قسوته الوحشية.

الأسطر القليلة التي تكتب عنه تنضح باللؤم. وتتباهى كل جماعة بأنها هي التي حاربته وأسرته وقتلته !! حتى بعد وفاته !

والسبب أن الرجل عاد فاستوى على رجليه. وأذاق الأوروبيين بعد ذلك أبشع المرارة! وقد نتساءل عن الأسرى من أسرة مجاهد. ماذا كان مصيرهم؟ لم يقتلوا فقد كانوا الصيد الثمين لدى بيزا وجنوة ولقد تماسك مجاهد لفراقهم السنوات الطوال إلى أن تمكن من فداء زوجته وبناته. ورفضت أمه جود العودة بقيت مع أبناء دينها. أما ابنه (علي) فقد أهداه البيزيون إلى إمبراطور ألمانيا هنري الثاني تقديراً لجهوده في مساندة بيزا. بعد أن بقي في الأسر ستة عشر عاماً عاد سنة ٤٢٣ على يد رجل يدعى البيزوني. وكان الوسيط في إنقاذه هم آل حماد، أمراء بجاية، في المغرب الأوسط. وكانوا على علاقة الصداقة التجارية طبعاً بجمهوريات إيطاليا البحرية والبابوية...

حين توفي مجاهد بعد حكم دام ثمانية وعشرين سنة تولى ابنه (علي) إمارته اثنتين وثلاثين سنة (٤٣٦ ــ ٤٦٨) والطريف أنه حمل لقب إقبال الدولة.

أكان إقبال الدولة يا ترى أم إدبارها هذا الذي تربى في البلاط الألماني؟.

توت عنخ آمون والمصادفة

قلائل هم الذين لم يسمعوا بتوت عنخ آمون الفرعون الذهبي . إن اسمه في دنيا التاريخ والآثار والفنون والثقافة له رنين الأجراس الضخمة . إنه يتنقل اليوم بالطائرات بين حواضر العالم الكبرى ويصطف له الحرس وتجري الاستقبالات وينتظر الآلاف بالصفوف ساعات ليتمكنوا من النظر إلى طلعته البهية ، ويحشد الأطباء لمداواة جلده أو أسنانه ! ..

هل خطر في بالك مرة أن تسأل من هو ؟ وكيف برز من وراء القرون الأولى ؟

إنه في الواقع ليس أكثر من مصادفة سعيدة ! ضربة من ضربات الحظ لا غير ....

إنه أولاً نكرة من النكرات ! هو واحد من صغار الفراعنة عمراً ومكانة ! .. وصل العرش وكان طفلاً في الثامنة من العمر وتوفي وهو شاب في الثامنة عشرة فقط . ولم يكن له من فتح يذكر أو عمل يؤثر . ولم يكن يحكم أصلاً . فالحاكم كان جده آي . ولقد مات توت فجأة . ودفن على عجل شديد في مقبرة كانت تحفر لغيره ، في وادي الملوك الصحراوي عند الأقصر كدسوا أدواته ولوازمه تكديساً عنده . وختم الكهنة على أبوابها الحجرية باسمه . وأهالوا التراب ... وكان ذلك منذ خمسة وثلاثين قرناً .... والفراعنة ليسوا واحداً ولا عشرة إنهم مئات ويشكلون ٣١ أسرة ملكية في التاريخ . وقد توالى على مصر مئات أخرى من الملوك والأباطرة والأمراء والسلاطين ... والكثير جداً منهم أطول عهداً من توت عنخ آمون بكثير ، وأعظم منه عملاً وأثراً في التاريخ

بكثير .... بكثير جداً، ومع ذلك فإن توت عنخ آمون هو الوحيد الذي عاد إلى القرن العشرين من كل هؤلاء بكل كنوزه وعظمته الملكية... وحضوره المهيمن....

والسبب في ذلك هو المصادفة: إنه الفرعون الوحيد الذي لم يعثر عليه لصوص المقابر خلال القرون الطويلة التي مضت والوحيد الذي بقيت مومياه بأقنعتها الذهبية ونواويسها الحجرية والذهبية ومقاعده المذهبة وكراسيه وعرباته وأدواته... حتى أواني العطر وجدت...

كبار الفراعنة الآخرون كلهم سرقوا... حتى موميات بعضهم اندثرت. أما توت عنخ آمون النكرة. فقد شاءت الصدف أيضاً أن يحفر فرعون آخر من كبار الفراعنة قبراً لنفسه فوق الموقع الذي يضم بقايا توت عنخ آمون. فكانت المقبرة العليا هي الوقاية غير المنتظرة للمقبرة الصغيرة السفلى....

ومشت القرون على وادي الملوك قافلة يجر بعضها بعضاً. من الإهمال والنسيان وعسف الرمال! وجاء هذا القرن ليدخله توت عنخ آمون الدخول الصاعق العالمي.

صاحب المبادرة لورد من اللوردات هو اللورد كارنافون كان ذا هوايات عديدة من بينها الآثار وقد اضطر صحياً للسكنى في مصر سنة ١٩٠٣ فأخذ يمضي وقته في التنقيب ثم استعان بخبير أثري اسمه هوارد كارتر ظل يعمل تسع عشرة سنة في الوادي المهجور وادي الملوك بين أكوام التراب والعمال والقفاف الذاهبة الآيبة دون أن يعثر على الفرعون المختبئ... وقرر كارتر مع صاحبه الممول أن يكون موسم حفريات سنة ١٩٢٢ موسمهم الأخير... فلا أمل بالعثور على شيء! وجاء في اليوم الرابع للحفريات ليفاجأ بصمت غير عادي بين عماله الذين اعتادوا الثرثرة كان أحدهم يضرب وتداً لخيمته فاصطدم صدفة بحجارة مرصوفة كشفت عن درجة سلم محفورة في الصخر...

واندفع الجميع للعمل بشكل محموم فكشفوا السلم فإذا هم في نفق سحيق انتهى بهم في ذلك اليوم نفسه إلى باب المقبرة وبعد شهر قامت الضجة العالمية حول توت عنخ آموت ومقبرته ....

الصدفة الأخيرة في قصة توت عنخ آمون ليست في أن الذين دفنوه دفنوا معه تلك الكثرة الهائلة من الذهب والأدوات الذهبية والفنية فانتقلت مرة واحدة إلى القرن العشرين بكل ما فيها .. ولكنها كانت في موت اللورد كارنافون، ممول الحملة الأثرية بعد أشهر معدودة من كشف المقبرة. هذه الصدفة أطلقت من حول توت عنخ آمون بالذات أسطورة «اللعنة» لعنة الفراعنة تصيب كل من مس هذا الفرعون الصغير ... واتفق أن جميع الأشخاص الذين حضروا حفل افتتاح المقبرة عند فتحها توفوا في سنة ١٩٢٩ فأدخل الناس ذلك في حساب اللعنة ...

وهكذا لم تكتف الصدف بإعطاء توت عنخ آمون كل ما أعطته بل أضافت إلى كل أولئك إعطاءه قوة روحية تعلن وتقتل وتصدر الكثير في تفاسيرها ...

ألم أقل لك أن توت عنخ آمون ليس أكثر من صدفة سعيدة ..... ضربة من ضربات الحظ !.

الدولة بالمصادفة

الشاطئ اللازوردي ... هذا المدى المجنون الجمال الهارب من الجنة ، هل تعرفه؟ هل زرته؟ بحر ولا الرحيل في الأعين الزرق . وأقمار تتكسر . وسفوح هاوية تنسكب عليها الغابة ، ربيعاً ينهل فوق ربيع . ومرح ... يا حسرة الدنان على مثله . والناس فيه ضيوف على ضفائر الشمس ... وقد محوا من صحفهم الماضي والحاضر والمستقبل ... هم حياة ... وكفى !

هل عرفت هذا الشاطئ إنه شاطئ كان ونيس وطولون في جنوب فرنسا على العدوة البحرية بينها وبين الأرض الإيطالية ... ما أعرف أحد زاره إلا وأغمض عينيه بعد الوداع يتذكره . يمشي على رماله . يتسلق صخرة الغابي . يغيب يغيب في شعابه اللفاء ! ..

لو قدر لهذا الشاطئ نفسه أن يغمض عينيه ويتذكر . أن يعود إلى ما قبل ألف سنة ويتذكر ... فماذا يرى يا ترى؟ سوف يرى أنه كان شاطئاً عربياً مسلماً عليه العمائم . وفي جنباته صهلة المهور المسلمة التي لم تكن تخطئها آذان الدنيا يومذاك . ولن يغتلي ارتياب أحد في هذه الطيوف المغلغلة كالصقور في جنباته حتى تتقراهم يداه بلمس فعل البحتري في إيوان كسرى . فإنه يعرف أنهم كانوا حقيقة واقعة . وما زال يحس وقع خطاهم على الصخر قلاعاً وشعاباً ومساجد ونقوشاً .

المغامرون الأبطال الذين صنعوا كل ذلك لا أسماء لهم في التاريخ . وكانوا جماعة لا أفراداً وقد صنعوا المعجزة حين لم ينظروا إلى الوراء . وإنما كانت تجمعهم كلمة واحدة عليها عاشوا وعليها لفظوا النفس الأخير هي الإيمان .

ونستطيع أن نعدهم مجرد مغامرين كما نستطيع أن نعطي المصادفة دورها في تأسيس دولتهم . ولكنك في الحالين لا تستطيع إلا أن تنحني أمام البطولة التي جسدوها واستطاعوا بها وحدهم إقامة دولة في أقصى الأرض الغربية عند نيس ، ومن حولها حتى أعالي حوض الرون .

لقد كانوا هناك . ولقد أسسوا دولة مجهولة الاسم . مجهولة الأبطال . دامت أكثر من ثمانين سنة . تسيطر على ما بين نيس ومرسيليا إلى وادي الرون إلى القمم الثلجية من جبال الألب وصخورها المسنونة الزرق ... ما كتب أحد من العرب المسلمين قصة هذه الدولة الشاردة . لقد نشأت في الغربة وماتت في الغربة دون أن يروي أي عربي أخبارها . وكما كان السيف العمود الذي حملها وشالها كذلك لما انكسر ذهبت معه ! ..

المؤرخون الأجانب هم الذين رووا القصة نتفاً مبعثرة . أصداء تقطر بالمذلة وبالحقد في وقت واحد . أخباراً يحاولون أن يجروا عليها رداء اللصوصية وتأبى الأخبار إلا التمرد ....

قصة هذه الدولة بدأت بمصادفة : عشرون ملاحاً عربياً أقلعوا من إسبانية في مركب خفيف الشراع . ما تدري أين كانوا يقصدون ؟ لعلهم كانوا من غزاة البحر يقصدون السواحل الإيطالية ، أو جزيرة سردانية ، أو قورسيكا . فأخذتهم الريح والعواصف ودارت بهم في البحر . حتى إذا هدأت وجدوا أنفسهم أمام الساحل الفرنسي الجنوبي عند الخليج المعروف اليوم باسم سان تروبيز . كان ذلك في أحد أيام سنة ٨٨٩م/٢٧٥ للهجرة نزلوا البر فلم يبصرهم أحد . ما كان هناك أحد . ودخلوا الأجمات المشتبكة قرب الساحل ينظرون فلم يكن فيها أحد . ما كان إنسان يجرؤ على التوغل في ذلك الأجم الوحشي وتسلقوا المرتفعات الجبلية التي وراءها حالاً على حال حتى القمم فإذا بهم يشرفون على المدى الأوسع من البر والساحل. إنها منطقة البروفانس ، كانت جبال الألب من ورائهم في زرقة البنفسج أما البروفانس فكانت أمامهم

بحراً من الخضرة حتى البحر ... وفهموا حالاً ملاءمة المكان للاستقرار الدائم . فالبر مجال غزو . والبحر باب مدد وباب هرب ... أيضاً ، إن لج الخطر . وأرسلوا إلى إسبانيا وأفريقية يطلبون ممن يشاء الانضمام إليهم وما مضت سنوات على امتلاك المنطقة حتى امتلأت غزاة ومجاهدين . كما امتلأت حصوناً وقلاعاً ومعاقل . كان أهم تلك الحصون هو القلعة التي أقاموها على ما سموه بجبل القلال ، قرب مدينة مندثرة هي فراكسنت التي سموها فرخشنيط . لقد أصبحت بسرعة يومذاك قاعدة الدولة والغزاة وما يزال في موضعها إلى اليوم جدران متهدمة وبنيان منحوت في الصخر وبئر قد حفرت في قلب الجبل وخنادق وبقايا خراب ....

ونشرت هذه الدولة سلطانها على المنطقة كلها ودبت الرعب في جميع القلوب . أغارت على حوض الرون وبورغندية وعلى وادي (فاليه) الفرنسي وعلى لمبارديا في شمال إيطاليا وتسلقت جبال الألب حتى سيطرت على الممرات الكبرى فيه فلا مرور إلا من تحت أمرها وبجزية تؤدى لها . وصعدت حوض الرون حتى فرَّ منه الأغنياء إلى الشمال ودخلت حوض الصون واحتلت (غرونوبل) وتوغلت حتى قلب سويسرا . وخلت السواحل الفرنسية الجنوبية من الفرنجة فهي عربية مسلمة ...

وقد تزوج أهلها من السكان المجاورين وحرثوا وزرعوا وتعاونوا مع القوى المجاورة أو حاربوها ... وصدوا كل المحاولات الفرنجية لتدميرهم وقد كان أخطرها تلك التي جاءت سنة ٩٤٢ . بعد قيام الدولة بخمسين سنة ...

وأسهمت هذه الإمارة الأوروبية في التصدي لحشود البرابرة المجر سنة ٩٥٤م . واستنزفت قواهم مدافعة بذلك عن الحضارة في أوروبا . ومكنت إمبراطور الجرمن أوتو الأكبر من الإجهاز على قواتهم الرئيسية في لينخينفيلد على مقربة من أوكسبرغ سنة ٩٥٥م/٣٤٤هـ . واستكان المجر منذ ذلك الحين واستقروا حيث هم على الدانوب على أن الخطر الحقيقي عليها إنما كان قلة

العدد . فقر الدم هو الذي كانت تشكو منه . الذين توطنوا لم يكونوا بالأعداد الكافية لتكوين مجتمع يواجه قوى عديدة . . . ولهذا انكفأت الجماعة إلى الوراء . أخرجت من (غرونوبل) سنة ٩٥٦ ثم أزيحت عن ممر سان برنارد في جبال الألب سنة ٩٦٠ واشتبكت مع الإمبراطور أوتو الأكبر فأرسل السفارة بعد السفارة إلى الخليفة الناصر في الأندلس يشكوها ويرجو كف أو وقف اندفاع «غزاة البحر» هؤلاء التابعين إليه عن مهاجمة ممتلكاته . ولما لم تجد المفاوضات أعلن الجرمان ، بالتحالف مع الفرنجة والإمارات الإيطالية والبابوية الحرب على هذه الدولة الإسلامية التي كانت تقف لهم كالطود الشامخ . وأطمعت القوى الكنسية والعسكرية الناس بهذه الدولة : من يقاتل ضدها فله الأرض التي يحتل . . . وأقبلت القوى المعادية «عصائب طير تهتدي بعصائب» .

ولما شعر العرب أن أهل البلاد ضيقوا عليهم من كل جانب نزلوا من جبالهم مجتمعين . ودافعوا عن أنفسهم كتلة واحدة في معركة بعد معركة حتى لجأوا في النهاية إلى حصن القلال . فلما حوصروا فيه سنة ٩٧٥ غادروه في الليل إلى الأحراج والغابات . . . وتبدد الجمع . فمنهم من قضى نحبه ومنهم من فر في البحر . ومنهم من شكل عصابات تحارب في الغابات ومنهم من وقع في الأسر ليعمل في مناجم المعادن لحساب الكنيسة أو الزعماء حتى الموت ! . . . وبقيت جيوبهم تقاتل في جنوب شرق بلاد الفرنجة والجبال السويسرية حتى سنة ١٠٠٠م (٣٩١هـ) .

هل انتهت بذلك قصة المصادفة التي كتبت ثمانين سنة من التاريخ على الشاطئ اللازوردي ؟ . . . .

لم تنته في الواقع ! كان بين القواد المطاردين لأبطال جبال القلال ، قائد يدعى جيرولدوس . وكان من أعوانه الأساسيين قائد آخر يدعى غيبلين غريمالدي . والرجل كان جنوي الأصل وقد أبلى البلاء الشيطاني في الحرب ضد

مسلمي فرخشنيط وفي تعذيبهم . وقد منحه أمير البروفانس الكونت غليوم ، المنطقة المحاذية لخليج سان تروبيز تقديراً لشجاعته ...

هذا الرجل هو جد الأسرة التي ما تزال إلى اليوم تحكم المنطقة : إمارة موناكو . إن من يسمى بالأمير رينيه زوج «المرحومة» غريس كيلي ووالد كارولين والبقية ، هم أحفاد ذلك الصليبي الأول .

أليس يشوقك هذا الشاطئ وتلك المرتفعات القائمة الآن عليه أكثر من ذي قبل ؟ .

المصادفات ... وفتح صقلية

قال صاحبي يحاورني وقد عاد قبل أيام من صقلية الجزيرة الممدودة بين تونس وإيطالية :

ــ عجيب أمر العرب المسلمين ! .. إنهم كالربيع ما مروا على أرض إلا تركوا فيها شيئاً منهم ، تركوا طابعاً يقول : هنا مر العرب ! بلى قد يدخلون البلاد كالصواعق ودفق السيل ولكنهم لا يتركونها إلا وفي أيديها من آلامهم ما يصبح جزءاً من تكوينها . في صقلية كانت كل عين مرآتي . كل سحنة مرآتي . كل نافورة بزاوية الطريق مرآتي ... والقلاع والأزقة الضيقة ولذعة الشمس ... إنها منا هذه الجزيرة .

وقلت : ومع ذلك فإن النفوذ العربي لم يبق فيها أكثر من قرنين ... مع أنهم قضوا في محاولة فتحها أكثر من قرن ونصف القرن . حاولوا فتحها مرات ولم يفلحوا ولما بدأ الفتح حقاً كانت المصادفة هي التي تتدخل مرات ليكون نهائياً وليكون الاستقرار بعده . والمؤرخون حين يروون القصة يقولون : في البدء كان أوفيميوس وليست القصة قصة ذلك الثائر الغريب وإنما هي قصة جهاد طويل وسيل أنفس على السيوف وعيون تسافر بين الرجاء والرعب وبطولات يهتز النجم ولا تهتز في سبيل الدفاع عن أفريقية (تونس) وضمانها جسراً آمناً بين المشرق والمغرب .

كانت صقلية أحد الممرات الثلاثة إلى أوروبا وكانت أهم المراكـز الاستراتيجية التجارية بين حوضي البحر المتوسط الشرقي والغربي وكانت بيزنطة التي تملكها تخاف عليها كموقع أمامي لها وترسل حولها كل سنة مراكب

تطيف بها وربما وقعت على بعض سفن المسلمين العابرة فنهبتها ... كما طالما استخدمتها قاعدة للهجوم على أفريقية (تونس) . فلم يكن غريباً أن يهاجم الأسطول العربي صقلية مرتين زمن معاوية ويرسل من غنائمها تماثيل مرصعة بالجوهر تباع في أسواق الهند وأن يهاجمها من بعده موسى بن نصير . وأن ينزل فيها بعد ذلك حبيب بن أبي عبيدة ويحاصر مدينتها سيراكوزة وأن تكون غزوة الأشراف ويكون نصيب الجندي الواحد من الغنائم مائة دينار ... ثم أن يهاجمها بعد ذلك الأغالبة مرات ... ولكن كل ذلك كان دون طائل لأنها كانت ذات قوة ذاتية من الأساطيل والحصون المنيعة والرجال وذات حماية كاملة من الروم وأسطول الروم الذين ظلوا أصحاب الحكم فيها ... وفشلت كل المحاولات ...

وذات يوم سنة ٢١٢هـ كان زيادة الله الأغلبي أمير أفريقية (تونس) في قصره بالقيروان يعالج ثورة قائمة عليه من البربر حين أبلغوه أن أفيميوس الحاكم البيزنطي السابق في صقلية وصل في البحر لمقابلته ! كانوا يقولون إنه خطف راهبة من الدير فعزل . ويقولون إن والي الجزيرة خطف حبيبته فأراد الانتقام ويقولون ... وقد يكون ذلك الرجل ثائراً أحبط البيزنطيون طموحاته ... وعلى أي حال فقد انتهى به الرأي عند اللجوء إلى الملك الأغلبي . ولما أذن له عرض عليه أوفيميوس فتح الجزيرة على أن يكون نائبه فيها ! وما كان الأغلبي بحاجة إلى من يحرضه على ذلك ولم يكن ليتردد في هذه الدعوة السخية الجاهزة لولا أن الثورة الداخلية عليه ولولا أنه كان على المهادنة مع صاحب الجزيرة مقابل أن يرسل ما لديه من أسرى المسلمين فيها ولولا ... خوف الأسطول البيزنطي الرومي ! ومع كل ذلك فقد استطاع قاضيه أسد الدين بن الفرات أن يقنعه بقبول مغامرة الفتح . وختم نصيحته بقوله تعالى : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾ . وتسلم القاضي نفسه رغم سنه المتقدمة قيادة الحملة ...

كانت مؤلفة من ٧٠٠ فارس و ١٠ آلاف راجل على مائة سفينة، أقلعت من مدينة سوسة في أواسط حزيران يونيو سنة ٨٢٧ (٢١٢هـ) وبعد ثلاثة أيام كانت تنزل في مازره على الساحل الغربي لصقلية . وقدم أمير الجزيرة الرومي : بلاطة (بلاطيوس) بجيش يفوق الجيش الإسلامي عدداً وعدة بكثير ولكنه هزم ! ... وقال شاهد عيان للمعركة : فلما انصرف أسد بن الفرات من المعركة رأيت والله الدم قد سال من قناة اللواء الذي يحمله على ذراعه حتى صار مع إبطه ! ولم يكن مع ابن الفرات أحد من أعوان أوفيميوس الذي قتل غيلة من قبل بعض الصقليين !

وسار ابن الفرات يفتح جنوب صقلية كله حتى وصل مدينتها سيراكوزه . (سرقوسة) على ٢٠٠ كم من مازرة . وضرب الحصار عليها عشرة أشهر وأدركت المسلمين مخمصة قلت فيها المؤن حتى ندرت وحتى أكلوا الخيول . وحاول بعض القواد رفع صوته بالعودة فضربه ابن الفرات أربعة أسواط أمام الجميع . ولما لم يبق بينه وبين النصر إلا الصيحة الكبرى : الله أكبر إذا به يفاجأ بانتشار الطاعون في جيشه . لم تذهب هذه المصادفة المرضية بحياة الكثير من الجند فقط ولكنها ذهبت أيضاً بقائده الذي دفن تحت أسوار سرقوسة وفجع الناس بعد ثلاثة عشر شهراً من القتال وتفشى فيهم اليأس كالوحش الجائع يحمل معه كل جثث الموتى الذين ذهبوا وذكريات كل الحملات الفاشلة التي كانت . إنها إذن غزوة ككل الغزوات السابقة . وعبثاً ما يحاولون وقرر القائد الذي سلموه الأمر محمد بن أبي الجواري العودة إلى أفريقية ... وهنا وقعت المصادفة الثالثة :

ما كادوا ينزلون المراكب ويطلقون الأشرعة حتى فوجئوا بوصول أسطول الروم القادم لنجدة سيراكوزة ومعه سفن البنادقة ! وسرعان ما استعرض البحر ليقطع عليهم الطريق ، ولم يكن أسطولهم بالذي يقوم للأسطول الرومي ... فلم يكن لهم من خيار سوى العودة إلى صقلية كرة أخرى والحرب اليائسة .

حين نزلوا البر ثانية خافوا أن يضعفوا أو أن يحرق الروم مراكبهم فأحرقوها بأنفسهم كما فعل طارق بن زياد فليس لكم والله إلا الصبر أو النصر . إن الموت يأتي مرة واحدة وميتة وراء السيوف خير من ميتة الغرق ولا حول ولا طول ... وهاجموا قلعة صغيرة قرب سيراكوزه فأخذوها ثم أوغلوا في الجبال الحرجية بين البلدين يحتمون بأدغالها والشجر ... وما كانوا يأملون في نجدة أغلبية منقذة فقد كان زيادة الله في شغل عنهم بالثورة البربرية المتفاقمة . ولكن كيف الصبر على الجوع وليس ثم أقوات لم يأتهم من سفن الإمداد إلا القليل ! في لحظة الحرج الكبرى جاءت المصادفة الرابعة بالفرج . العواصف العاتية دفعت إلى الشواطئ الصقلية الجنوبية بأسطول من غزاة البحر الأندلسيين الذين كانوا يقطعون البحار على السفن الكافرة . كانوا في ٣٠٠ سفينة يقودها الأصبغ بن وكيل والأصبغ رعب البحر في تلك الفترة ويعرفونه باسم ابن فرغلوش ... واتفق الجند الأغلبي معه على أن ينزل لنصرتهم ويفتح معهم المدن وتكون له الإمارة على ما يفتحون .

وتحولت الحملة مرة ثالثة وبالمصادفة من الدفاع إلى الهجوم . فتحت بلدة جرجنت عنوة . وأنزلت أهل قصريانة من صياصيهم وكان أكبر حصون الروم ولكن المصادفات لم تنته مع المجاهدين ! عاد الطاعون ففتك بالجيش وجرف معه مع من جرف ابن فرغلوش كما أخذ الكثير من القواد ، ثم لحق بهم ابن أبي الجواري ! وعاد الاضطراب واليأس يفترسان الجيش الفاتح . فأما الأندلسيون فهربوا بعد ذلك على الأشرعة ! وأما الجيش الأغلبي فانتظر تعليمات الأمير .

الهام أن هذه العمليات الحربية لعبت فيها المصادفات مداً وجزراً كانت هي القول الفصل وما هي بالهزل ! في سنة ٨٣١ تحقق للمسلمين نصرهم الكبير بفتح بالرمو كبرى مدن الجزيرة وبدأت مقاومة صقلية تنهار مدينة مدينة .

لقد كانت مطلع الفتح للجزيرة الصقلية وهو الذي أعطاها للإسلام ، قرنين وأعطاها الطابع العربي الإسلامي إلى اليوم ..

هل يفعل الإيمان وحده كل هذا ؟ أم كان لابد أن تلعب المصادفة كل أدوارها ليكون هذا الفتح ؟.

أن تكون إلهاً ... مصادفة!

الآباء الذين ينظرون إلى أبنائهم. ينظرون إليهم بالمنظار الملون تلك إحدى -حقائق الأبوة. كل شيء فيهم رائع محبب ... حتى القبيح! فإذا ... نظروا إلى آمالهم في هؤلاء الأبناء نظروا أيضاً بالمنظار المكبر، الضخم .. من ذا الذي لا يشتهي منا أن يكون ابنه أعظم العظماء، لا يشتهي أن ينتقم به قصور الحظ المحدود الذي ناله في هذه الدنيا؟ إنك ـــ مهما بلغت من التواضع، لتغضب في قرارتك لو قيل لك إن أي إنسان آخر أحسن منك إلا ابنك ـــ فأنت من هذه الكلمة أمام دغدغة المديح، وعارض، أشبه بالغرور! أو هي الغرور ذاته ...

وقد تتمنى لابنك على الأيام أن يكون من عظماء البشر، أن يساعده الحظ فيلتقط النجوم مع كبار الشعراء، أو تدين له القوانين فهو العلم المشهود في الطب، أو يصبح رجل الدولة الألمع يمشي بين صفين من الأصابع المشيرة إليه، أو أغنى الأغنياء الأسطوريين. تتمنى على المصادفات أن تخدمه ليكون في أعلى عليين. لكنك بكل تأكيد لا تتمنى ولا يمكن أن يخطر في بالك أن تتمنى أن يكون إلهاً! ...

ذلك مبلغ من الحمق لا يبلغه من يتمتع بأدنى قدر من العقل ومع ذلك فثمة في البشر من يراودهم هذا التمني ... وفيهم من ينتظر لابنه هذه المصادفة الخارقة. هل أتاك حديث الدالاي لاما؟ ....

إذن فلنذهب معاً إلى سقف العالم ... نتبين الأمر!

وليس «سقف العالم» سوى الاسم الذي يطلقه الجغرافيون على هضبة

التيبت . تلك الكتلة الجبارة الموحشة المغطاة بالثلوج والتي اتصلت بعضها مع بعض في هضبة واحدة ، هائلة المساحة (مليون وربع مليون كم٢) وإن مزقتها الوديان والقمم . تصل في الارتفاع إلى خمسة آلاف متر ، تنبسط إلى الشمال من جبال هملايا بين الهند والصين ...

قسوة الصخور الزرقاء المعممة بالغيم تنعكس هناك على ملامح السكان الذين يزيدون عن مليون وربع المليون . وكلهم هناك رعاة نصفهم محاربون . من أشد المحاربين عصابات (الخامبا) . هي أسطورة تلك الجبال أما النصف الآخر فرهبان ... وليس أكثر من الأديرة الرهبانية في تلك الأصقاع . ولكن للديانة اللامية ... أحد فروع البوذية الخاصة بالتيبت !..

حتى سنة ١٩٥٠ كانت التيبت يحكمها إله أرضي مزعوم من بني البشر يسمونه الدالاي لاما . مجموعة الآلهة (المزعومين) الذين توالوا على حكمها في القرون الطويلة السابقة من أعجب مجموعات الأرباب !

ليسوا سلالة محددة ، ولا أبناء طبقة معينة ، أو بلد ، أو جماعة ، أو أوصاف خاصة . وليس فيهم من له أي صلة بالإله الذي سبقه . إنهم آلهة ولكن بالاختيار . وبالاختيار الغامض المملوء بالأسرار ... ويجري اختيارهم وهم لا يزالون أبناء أيام معدودات لا تصل أبداً إلى الشهر ... والمصادفة ، المصادفة وحدها هي التي تنقل « الطفل » المحظوظ — دون أن يدري — من مجرد شخص عادي يكافح مآسي الحياة الرعوية مع الصخور والثلوج وقطعان الياك ... والأيدي المشققة من الصقيع ! إلى إله ترجى آلاؤه وله الركوع ورفيف القلوب ...

حين يبلغ الإله حاكم التيبت الثالثة والعشرين من العمر ، كان يختفي بصورة غامضة . ما من أحد يعلم أيان مصيره . ولكنه يختفي نهائياً لترفرف روحه حول بلاد التيبت فوق الصخور المسنونة والثلج الأسطوري . وتبدأ باختفائه مهمة اللامات ، كبار الرهبان الثلاثة والعشرين ، الحليقي الرؤوس ،

الذين يكونون الحلقة المغلقة للدين وللحكم في القصر المقدس، قصر الدالاي لاما الـ Putala (البوتالا) في العاصمة القدسية: لهاسا! وتتجه قلوب المؤمنين جميعاً إلى جدران ذلك القصر الشبيهة بالأسوار الحجرية تعلوها مئات النوافذ المطلة في الجلال القديم المهيب على رعب الوديان المجاورة...

هناك يكون الرهبان الثلاثة والعشرون قد اختاروا واحداً منهم، عليه في نهاية ثلاثة وعشرين يوماً، أن يجد الإله الجديد للتيبت. في حين ينصرف الآخرون إلى البكاء والتضرع في الليل والنهار، راجين هذا الراهب إنقاذ البلاد من الشياطين المتربصة بها مع غياب الإله: وصعود الأدعية، التي علقت، منذ غاب، بين السماء والأرض فلا حراك...

وبعد أن يعتكف شيخ الرهبان أياماً يفكر، يخرج فيعلن أنه عثر على الطريق الذي يدله على الإله الجديد ــ القديم. على الطفل الذي حلت فيه روح الإله السابق. إنه يعلن ذلك في احتفال مهيب يشير بين الصمت والأسى إلى قسوة المهمة الشاقة وصعوبتها، ولكن الإله السابق سوف يعاونه لا بد في ذلك لأنه أشار عند موته إلى الجهة التي سوف يظهر فيها. وأما شكله الجديد الطفل فإن باستطاعة الراهب، صاحب الاختيار، بالتركيز والتأمل أن يراه... وإنه ليراه على صفحة البحيرة الجبلية القريبة من لهاسا والتي يقبع الراهب بجوارها عدة أيام يتأمل الماء ليل نهار. فإذا رأى صورته رأى أيضاً صورة أبيه وأمه وشكل بيته في القرية.... ولا بد بالطبع أن يكون أول مولود ولد بعد وفاة الإله السابق أو بعد اختفائه.

ويكفي بعد ذلك أن يركع على شاطئ البحيرة. ثم يتوجه للمجيء بالإله... من قريته، ومن بين أحضان والديه... المبهوتين بالطبع من المفاجأة. ومن السعادة أيضاً.

وتنتهي فترة الضياع والتوتر والتهديد الشيطاني باحتفالات ظهور الدالاي لاما. الإله الجديد الذي يكون خلال ذلك قد أدخل قصر البوتالا فجرى

ختانه ورسمت علامات الألوهية وشماً بوخز الإبر الملتهبة على ظهره وقفاه وباطن القدمين لتطهيره من الشياطين وتمييزه عن بقية البشر ...

حتى سنة ١٩٥٠ كانت هذه المصادفة الغريبة تتكرر كل ٢٣ سنة! وكان الدالاي لاما سيد التيبت وحاكمها من خلال الرهبان اللامات الثلاثة والعشرين ورئيسهم الذي يدعونه البانشا لاما. ثم يختفي في الثالثة والعشرين من العمر ليفسح المكان لإله آخر.

ومنذ سنة ١٩٥٠ احتلت الصين هذه البلاد. وضاق الأمر بالرهبان اللامات وبالدالاي لاما للدرجة التي جندوا فيها أبناءهم المحاربين. وفي حملة خاطفة على لهاسا سنة ١٩٥٩ اختطف المحاربون الإله ورهبانه. وخرجوا بهم عبر الدروب الجبلية الوعرة والمسالك الهاوية إلى المدينة الهندية: ميسوري المجاورة للحدود!..

وطال عمر هذا الدالاي لاما وحده دون سابقه... لأن التيبت أضحت ذات استقلال ذاتي في جمهورية الصين منذ سنة ١٩٦٥. ودخل العديد من اللامات في الحكومة... وانقطعت سلسلة الآلهة والمصادفات التي تختارها!..

صدفة تؤدي بالملك إلى المقصلة

التاريخ كان يوم ٢٣ يونيو (حزيران) سنة ١٧٩١ ... والمكان قرية فارين الفرنسية ، القريبة من الحدود مع بروسيا الألمانية .

الصباح الصيفي في ذلك اليوم كان مزروعاً بالضباب الخفيف الذي ينقشع على هون مع ارتفاع الشمس .

وعلى الطريق المتعرجة في السهول كانت عربة تظهر وتختفي من خلال المساحات الغابية وتتجه إلى القرية ... حين وصلت العربة إلى ساحة القرية أمام الكنيسة ، لم ينظر إليها القرويون بفضول كبير ، رغم مظهرها الحسن تحت الغبار . كانوا قد اعتادوا مرور عربات من هذا النوع يركبها النبلاء وكبار المسافرين والكهان في الطريق إلى الحدود . وفتح باب العربة . وأطل منه رأس سيدة أنيقه ظاهرة الكبرياء تسأل : ـــ هل الحدود بعيدة ؟

وأجابها القروي الذي اتفق أنه كان قريباً منها :

ـــ ساعة أو بعض الساعة في العربة ...

لم يعرف القروي من كانت تلك التي تحدثه . ولكنه لاحظ أن معها في العربة طفلاً و .... رجلاً !

من الرجل ؟ إنه يعرف هذا الوجه جيداً بلى ! وصاح فجأة :

ـــ ولكنه الملك نعم الملك ! ... إنه الملك ... الملك !

وتراكض القرويون يتجمعون .. أولاً حول العربة بفضول ما لبث أن تحول إلى غضب ونقمة . وجاءت الفؤوس والمناجل الزراعية تلمع وتقف على الطريق ....

ـــ إذن فالملك يريد أن يهرب ! أعيدوه إلى باريس ... حولوا وجهة الخيل ! وعادت العربة الأدراج . خرجت هاربة تتسلل من باريس ليس يعرف بها أحد . وعادت بين موكب يودعها وآخر يستقبلها من الغوغاء على طول الطريق حتى باريس ! كان الملك الهارب هو لويس السادس عشر والسيدة هي الملكة ماري أنطوانيت وأما الطفل فهو ابنهما ولي العهد الذي سيسمى ، في التعداد فقط ، لويس السابع عشر . ولكنه لن يرى العرش أبداً ! ...

وخرج جموع الباريسيين تستقبل الملك الهارب بالهرج والصخب والسخط والشتائم ! ...

كان لويس السادس عشر قد احتمل على مضض تفجر الثورة الفرنسية في وجهه ... صحيح أنه كان تقياً ، حسن الأخلاق . إلا أن بلادة ذهنه وكثرة التردد فيه والخجل ... لم تكن لتتفق مع مرحلة الثورة . لقد تحدته الجمعية الوطنية قبل سنتين فلم يستطع لها شيئاً . ثم هاجم الشعب حصن الباستيل ، السجن الملكي ، فلم يملك دفعه . وغير الثوار العلم الفرنسي فقبله . وألغوا امتيازات الأشراف ورجال الدين وحطموا النظام الإقطاعي فوافقهم . ثم جاءت مظاهرات الغوغاء بالطبول فساقوه مع الملكة ومع ولي العهد من قصر فرساي إلى باريس وهم يصيحون جئنا بالخباز والخبازة وابن الخباز ! .. فاستكان كالسجين في قصر التويلري ... وطلبوا منه أن يقسم يمين الولاء للدستور الذي أعلنوا فيه حقوق الإنسان فأقسم فوقع !

كان يماشي الثورة مرغماً أو كالمرغم . أما امرأته ماري أنطوانيت وهي ابنة إمبراطور النمسا فكان لها رأي آخر : كانت تقول : لقد هرب الكثير من النبلاء خارج فرنسا يجندون الجنود لخنق الثورة ، فلماذا لا نهرب ؟ إن إمبراطور النمسا وملك بروسيا على استعداد لكل معونة في هذا السبيل . وقد كتبا في ذلك فلا وقت للتردد .

ونجحت الملكة أخيراً في حمل الملك على القبول بالفرار . ودبرت لذلك

كل شيء. هيأت العربة والحراس الأمناء والقائد بوبيه لاستقبالهما على الحدود والجند النمسوي والروسي الذي ينتظر الإشارة. وقبل أن تخرج بالملك في غلس الليل جعلته يوقع على منشور يعلن فيه بطلان الدستور الذي وقعه مرغماً. وإلغاء التدابير الثورية التي اتخذت لأنها غير شرعية، ويعد بالعودة لإرجاع الأمور إلى نصابها ...

مشى كل شيء كما اشتهت الملكة حتى وصل الركب الملكي قرية فارين في ذلك الصباح الحزيراني وعرف القروي بالصدفة ... وجه الملك .. منذ تلك اللحظة قضي على الملكية في فرنسا. لقد ظهر الملك على حقيقته. ظهر أنه الخصم العلني للدستور وللثورة. وأنه «مهاجر» مع النبلاء المهاجرين في قرارة نفسه. ونصير للكهنة الذين لم يقسموا يمين الولاء للدستور. وأكثر من هذا كله كشف أنه، في الواقع، حليف للدول الأجنبية (وبخاصة النمسا وبروسيا) التي تريد وأد الثورة ... وبكلمة واحدة افتضح بأنه عدو الشعب!

وزاد في تدهور موقفه أن الملكين النمسوي والبروسي أصدرا بعد حوالي الشهرين من ذلك الهرب قراراً (قرار Pilnitz) يعلنان فيه التدخل المسلح لمصلحة الملك الذي كان في باريس أشبه بالسجين ...

وحين تحركت جيوش النمسا وبروسيا إلى الأراضي الفرنسية أجبروه على إعلان الحرب عليهما إجباراً. وبينا كان الثوار الفرنسيون يعلنون أن «الوطن في خطر» ويجندون كل شيء للدفاع فوجئوا بمنشور الأعداء يعلن حماية الملك ... وتأكد للناس أن الملكية خائنة! فأعلنوا الجمهورية وانتهى الملك والملكة إلى السجن ... وبعد أربعة أشهر من ذلك كان رأس الاثنين يتدحرج على المقصلة بين تصفيق الجماهير ..

حين سئل ذلك القروي من فارين: ولكن كيف عرفت الملك؟

ـــ قال: مصادفة! لقد عرفته من صورته على النقود! ...

لولا هذه المصادفة أما كانت أحداث فرنسا تأخذ يا ترى سبيلاً آخر؟.

مصادفة ذهبت بالأندلس

كنا مجموعة من الأصدقاء في السيارة الكبيرة. والسيارة تخرج بنا من هضبة قشتالة وجرودها الإسبانية إلى الجبال ذات الخضرة في الجنوب الأندلسي. وفي آذاننا وعلى العيون أصداء من دون كيخوته البطل القشتالي الزائف، ومن خبب بغلة البليد، ودبيب الحمار وراءه مع تابعه سانشو كنا نهزل نغني. نصيح. نضحك مع الجو الربيعي الفردوسي الذي أخذ يغمرنا على الدروب الجبلية... وأخذ الركب على واد أسود. حجارة نخرة داكنة كأنها بقايا حريق قديم، تتصاعد على الجانبين حالاً على حال، ومجرى مائي جف في القاع غير بعيد. وأشجار هي بين أن تعطي الخضرة أو تمنع.... والدرب يمشي صعداً ويتلوى. وران الصمت. فقطعه مضيفنا الإسباني صائحاً:

ـــ ها هنا كانت مذبحة الكلاب... الجبال هذه اسمها جبال مذبحة الكلاب!..

وغاصت الصيحة في صدري فجأة، كالشهاب المنقض ـــ خنجراً غير منظور كانت. مزقتني من الشفة حتى القدم... وتوقعت أن يسأل أحدهم مزيداً من التفاصيل. ونحن مجموعة حسنة من العرب!.. وقد كان ما خفت أن يكون وسألوه:

ـــ وما قضية المذبحة؟ ومن الكلاب؟

وأحس الرجل بالحرج وتمتم بالإسبانية على الخفوت:

ـــ قصة قديمة لا أعرف الكثير عنها. ولكنها معركة!..

وأسرع يدير في المسجل أغنية إسبانية. انداحت وانداحت وعصفت

الكاستنيتا . وبكت القيثارة على الأكتاف . وهفت في الخواطر ألف تنورة مزركشة تدق الكعوب . بموسيقا التحدي والهزج ... وذهب الجميع مع القيثارة والتنورة والعيون السوداء بدداً .

أما أنا فقد ذهبت القهقرى في الزمن ثمانية قرون ... عدت بالضبط إلى سنة ١٢١٢م بعد سقوط القدس في يد صلاح الدين بالمشرق بخمس وعشرين سنة ... وفي نوع من رؤى اليقظة ، امتلأت عليّ قنن هذه الصخور السود بالرجال ، بالخيل ، بصليل السيوف والحديد .. خيل إلي أني امتزجت بها ذات يوم شوكاً وتراباً ، وعرفتها حجراً حجراً . هذه الصخور وهذه المسالك الوعرة عشتها يوم جرى القاع فيها دماً بدل الماء ! .. إنها واقعة العقاب ! وهذا في القمة البعيدة حصن العقاب . منيع كالعقاب فيه الخليفة محمد الناصر بن المنصور ، خليفة الموحدين ومن حوله مائتا ألف محارب . تسعر منهم السفوح . ويقفون سداً من البشر على سد من الجبال دون الأندلس في وديان وجبال سييرا مورينا ...

على الطرف الآخر ، ثمة زحف ثان مختلف . رأسه ألفونس الثامن ملك قشتالة ، رأس الحربة الموجهة للأندلس . ومن حوله ألوية وبنود مختلف ألوانها ، ومختلف أشكال الجنود واللغات والقادة ...

كان ألفونس (ويسميه العرب الأذفونش) قد هزم هزيمة شنيعة أمام المسلمين قبل أربع عشرة سنة . وليست (واقعة الأرك) بسر . بلغت هذه الهزيمة من الحدة أن ألفونس بعث إلى كل أرض يستجير ويستصرخ . وكانت أوروبا كلها تتجاوب معه بعد أن ذهبت القدس وفشلت الحملة الأوروبية في استردادها . كما فشلت الحملات التي أعقبتها . جو الصليبيات المحموم كان يعبق بالحقد . البابا إينوسان الثالث أطلق النداء من البحر الأسود إلى اسكوتلندا . ومنح البركة والغفران لمن يساعد ألفونش . وهدد بالحرمان من يهادن المسلمين من الأمراء . النفير بلغ حتى القسطنطينية . وجاء منها إلى

قشتالة المتطوعون .... المؤرخون المسلمون الذين سجلوا واقعة العقاب قالوا : « جاءته الأمداد من كل فج عميق ومكان سحيق . أقبلوا عليه إقبال الليل والنهار من رؤوس الجبال وأسياف البحر . وكان أولهم سبقاً الإفرنج المتوغلون من الشرق والشمال بالعدد والرجال ... » ويقدرون عدد هذه الجموع المتحفزة لاكتساح الأندلس في الجنوب بمائة ألف مقاتل ما بين فارس وراجل ....

وكان الخليفة الناصر يرى أن النصر حليفه . تفوقه العددي كان يعطيه كل الثقة والنصر . وهذه الجبال حصون أخرى تمنعه وكل المسالك إليها محروسة بالرجال ... وقد منعه بالفعل وتوقف الزحف القشتالي الصليبي حائراً لا يدري ما يفعل ... حتى لجأ إلى المهادنة والمفاوضة بالصلح ... وهدأ المحاربون ينتظرون الانصراف ....

وفجأة وجد الخليفة الناصر كتلة جيشه قد طوقته من الخلف وقد أخذتها السيوف بغتة .... المصادفة ساقت إلى قادة الجيش الصليبي راعياً من الرعاة ، دلهم على ممر جبلي لا يعرفه غير الرعاة . وتسلل المحاربون منه حتى خالطوا الجيش الإسلامي الغافل وبدأوا المذبحة ! ...

ما عرف التاريخ الأندلسي كله مثل هذه الهزيمة . ولا ذاق نتائجها . لقد تلاشى الجيش الموحدي كله . انتثرت على الصخور منه جثث تزيد على الخمسين ألفاً . وأخذ الناجون في فرار ما سمع بمثله . وأقفرت بعد ذلك سهول الأندلس والمغرب من المزارعين والرجال . وأقفرت الثغور من الحماة . وسقطت خطوط الدفاع . وانهارت مدن الوادي الكبير . وسقطت بعد ذلك قرطبة وإشبيلية . فلم يبق من أندلس الأحلام التي نعرف سوى مملكة غرناطة في أقصى الجنوب الشرقي الإسباني ...

كانت السيارة ما تزال تعبر الوادي الأسود وأنا أعيش هذا الكابوس المرعب . وخيل إلي أن الجثث منثورة فيه وما تزال تنزف وتسقي الأرض .... وتنبهت فإذا الرفاق يغنون على التصفيق ويصخبون ....

فلامنكو . فلامنكو
وتستيقظ الحانة الغافية
على قهقهات صنوج الخشب
وبحة صوت حزين
يسيل كنافورة من ذهب
وأجلس في زاوية
ألم دموعي . . .
ألم بقايا العرب ! . . . .

مصادفات أوجدت البرتغال

هل يشوقكم أن تعودوا معي إلى ما قبل تسعة قرون؟ وإلى الأندلس وشموسها الخضراء؟ ....

نحن في خريف سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م وأمام قلعة شنترين من أرض البرتغال. الميدان حول القلعة غبار غبار!.. وسيوف تلتمع، ومغفر يطير. وجرح يصرخ.... وأشلاء تعلق بالشجر. وزعيق يختلط بوقع الرماح، وصدور خيل تهوي!.. المعركة في الإبان. والقتلى يتساقطون مع ورق الشجر الأصفر، وعلى الرابية المطلة كانت الأعلام والبنود تخفق. إنه مضرب أبي يعقوب بن عبد المؤمن خليفة الموحدين... سيد المغرب والأندلس، والرجل الذي كان وراءه... اثنتان وعشرون سنة من الجهاد حتى الآن. ولقد أعياه حرباً ومطاولة ذلك التجمع البرتغالي الذي ظهر في أشبونة (لشبونة الحالية) على الساحل الغربي من الأندلس وفي شنترين بالقرب منها.

فقرر أن يخرج بنفسه إلى البرتغاليين من المغرب في معركة حاسمة حشد لها القوات العظيمة في البر والبحر وعبر مضيق المجاز، مضيق جبل طارق إلى البر الأندلسي بينما أرسل الأسطول يحاصر أشبونة في البحر عند مصب نهر التاجو...

وكانت شنترين مفتاح الوادي الذي يجري فيه هذا النهر. كانت عربية منذ الفتح. وقد استولى عليها البرتغال قبل سبع وثلاثين سنة. فبدأها أبو يعقوب بالحصار. فما لبثت أن استسلمت له المدينة. أما قلعتها فظلت تقاوم أياماً بعد أيام!.. ورأى الخليفة الموحدي أنه يضيع الوقت أمام القلعة في غير

طائل .... إن دون سانشو البرتغالي قد جلل أسوار القلعة بالدرق والقسي والحراب . واستعد للحصار الطويل بالمؤن ، والخريف في أواخره .... وجاء القواد ذات يوم إلى أبي يعقوب قالوا : إن الجند يخافون هجمة البرد ، وهم على غير استعداد له . ويخافون أن يعظم هذا النهر بالمطر والسيول فلا يستطيعون عبوره وينقطع عليهم المدد . ونحن نشير بالرجوع إلى الوراء إلى إشبيلية . فإذا كان وجه الربيع عدنا ! . والقلعة في أيدينا كل لحظة ... وقال الخليفة : نرحل غداً إن شاء الله إلى لشبونة ...

وأصدر الأمر إلى الكتلة من الجيش يقودها ابنه بمتابعة السير إلى لشبونة للتعاون مع الأسطول هناك . في حين فهم بعض القادة أن الأمر صدر بالعودة إلى إشبيلية . فأسرعوا في تقويض الخيام ومبادرة العبور قبل الزحام ، ولحقهم أكثر العسكر يبادرون ... وجاء الليل وهم يعبرون وانقضى الليل والرحيل على قدم وساق . والخليفة أبو يوسف في خيمته لا يدري رحيل عامة الجند ... لكنه أفاق على صراخ كنعيق الشياطين حوله :

ــ إلري ..... إلري (الملك ....! الملك) .

كان أهل القلعة المحاصرون قد شهدوا هذا الانسحاب المفاجئ وخرجوا : قبيل الفجر في فرسان كثيفة يتعرفون ما يجري وحملوا على من وجدوهم من الجند وكانت الصدفة المأساة :

لقد وجدوا أنفسهم فجأة أمام معسكر الخليفة وليس في المعسكر إلا فرقة من الحرس وتصايحوا : إلري . إلري ...

قبل أن يتدارك الناس الأمر ، ويكروا على الجند البرتغالي ، كان الخليفة قد طعن الطعنة النجلاء التي مات منها في المحفة بعد أيام يسيرة ... وجنده من حوله تحسبهم الموكب الجنائزي الكبير ! ....

وفيما كان مقتل الخليفة الموحدي على هذه الصورة المأسوية يضرب دولته الضربة الممزقة ، ويثير فيها المشاكل الداخلية فيصرفها عن الجهاد سنوات

طويلة ، كانت هذه الأحداث نفسها تسمح للجماعة البرتغالية بالمقابل بالتوطد والاطمئنان ... إلى حين ! ... ولم تكن هذه المصادفة وحدها هي ضربة الحظ البرتغالي الكبرى ! .. الذين يعرفون التاريخ البرتغالي يعرفون أن دولة البرتغال قامت بثلاث مصادفات .

لقد كان توطدهم قبل أربعين سنة واحتلالهم لشبونة نفسها نتيجة مصادفة تمت قبل حكاية أبي يعقوب بثمان وثلاثين سنة . كان زعيمهم يومذاك الكونت هنري يحاصر لشبونة العربية الإسلامية عبثاً سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م فلم يكن لديه من أسطول يساعده ! .. وفجأة جاءته المصادفة بأسطول من حيث لا ينتظر . كانت مجموعة من السفن الإنكليزية مبحرة للالتحاق بالحملة الصليبية الثانية في الشام فأرغمتها العواصف على اللجوء إلى مصب نهر دورو على الساحل البرتغالي .

وبعث الكونت إليهم يستأجرهم لمعونته . وقال لهم الأسقف : لا داعي للسفر إلى الأرض المقدسة للحرب من أجل الصليب . المسلمون هنا في متناول أيديكم . وأجر هذا الأسطول نفسه . وحوصرت لشبونة بهم أربعة أشهر حتى سقطت في مذبحة دامية ! ...

ومن العجيب أن هذه المصادفة نفسها تكررت بعد مقتل الخليفة الموحدي بسنوات خمس فقط ... عبر بالشواطئ البرتغالية سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م ، بعد حطين وسقوط بيت المقدس بسنتين . أسطول فرنجي من خمسين سفينة عليه جماعة كبيرة من الصليبيين الألمان والفلمنك يريدون الشام ، ليلتحقوا بدورهم بالحملة الصليبية الثالثة التي كانت صيحتها في ذلك الوقت تملأ الغرب كله حقداً ونقمة على صلاح الدين ....

وانتهز ملك البرتغال سانشو الأول الفرصة التي سبق أن انتهزها جده قبل ثلاث وأربعين سنة .... وطلب منهم معونته في قتال جيرانه المسلمين واستجابوا لطلبه . فتقدم بهم يحدق ويحدقون بمدينة شلب أحصن البلاد

الإسلامية على الحدود ... وقد استطاع أهلها الدفاع عنها لكنهم لم يستطيعوا الصبر على العطش بعد أن استولى البرتغاليون على بئر قراجة التي تمد المدينة بالمياه ... وسقطت المدينة ! ..

هي ثلاث مصادفات عابرة في التاريخ . ولكن ثمنها كان ظهور ما نسميه اليوم دولة البرتغال !.

واترلو

لو ألمت بي أو بك ــ لا سمح الله ــ موجة من المغص وآلام المعدة والأمعاء. فماذا يمكن أن تكون نتائجها علي أو عليك: تعطيل يوم عن العمل؟ ضياع صفقة رابحة؟ تأجيل موعد هام؟.... ولكن هل يخطر في بالك أن تكون النتيجة ضياع عرش ضخم، واسم أضخم، وتقرير مصير شعوب شتى لسنين طويلة؟ ومع ذلك فهذه هي بعض قصة نابليون... اسم يرن كالجرس الضخم في ذاكرة العصر الحديث. أما في باريس فيسكبون عليه النجوم والأمجاد، إنه ما يزال حياً هناك بكل مكان. عند هذا القصر تجد اسمه. ومنعطف الساحة يبرز أثراً منه. وفي الحدائق وأقواس النصر يخطر طيفه، بالرداء الطويل، والقبعة المميزة، واليد المختبئة على الصدر. لقد أوقف أوروبا على قدم واحدة خلال خمس عشرة سنة. لا هدأ ولا تركها تهدأ. حَصَد زهرات الشباب الفرنسي على السواء. جرجر الناس في مطالع القرن الماضي من معركة لمعركة وهو على الحصان بين باريس إلى موسكو... كم سجل من الانتصارات؟

القائمة طويلة طويلة. إنك تجدها محفورة في ذاكرة كل فرنسي كما هي محفورة على الجدران حول قبر نابليون الرخامي تحت قبة الأنفاليد. وهناك أيضاً تطيف به الأعلام الممزقة التي كسب... ست مرات تحالفت أوروبا ضده، وعرفت وميض السيوف، وتقويض العروش، وذبح الشرايين، وميادين الأشلاء وانهزمت، ثم انهزمت... حتى استطاعت في التحالف السابع، بعد معركة ليزبغ سنة ١٨١٣ أن تهزم نابليون. ثم أن تلاحقه إلى فرنسا. فلما أصبح

كالأفعى المحاصرة المجنونة، يضرب هنا ضربة وهناك أخرى، لاحقته إلى باريس بالحصار ... وبعد سلسلة من التنازلات. وبعد أن سقطت باريس استسلم حتى قواد نابليون المنتصرون. وانتهى الأمر بأن ودع نابليون حرسه الوداع الحار. وأخذ طريقه سنة ١٨١٤ إلى الجنوب ليكون: ــ حسب معاهدة الصلح ــ الإمبراطور نابليون ملك جزيرة إلبا، الجزيرة الصغيرة الصغيرة قرب الساحل الإيطالي ....

ولم تمض أشهر حتى كان قواد نابليون يتهادون فيما بينهم زهرة البنفسج، زهرة نابليون المفضلة، وهم يهمسون: سيعود في الربيع! الملك الذي نصب على فرنسا باسم لويس الثامن عشر كان من الغباء بحيث لم يدرك أن فرنسا، خلال ربع قرن من الثورة، ومن الحروب الإمبراطورية، قد تغيرت كما يتغير كل شيء على الزمن. فأراد أن يعود بالناس إلى طرائق الملكية القديمة في الحكم. أما أسياد أوروبا المنتصرون فاجتمعوا في فيينا يرسمون على مهل خريطة أخرى لأوروبا، غير خريطة نابليون، ومن خلال حقوقهم الإقطاعية، والملكية، لا من خلال رغبات الشعوب.

وفجأة ولم يكن قد مضى على سفر نابليون إلى (إلبا) عشرة أشهر حتى ارتعشت فرنسا من أقصاها إلى أقصاها لخبر انتشر كالبرق

ــ لقد عاد الإمبراطور !!

ولقد عاد نابليون بالفعل. استقباله بكل قرية. بكل بلد. بكل مدينة كان مهرجاناً من الدموع والفرح وصيحة: عاش الإمبراطور! المارشال ناي قائده السابق الذي أقسم للملك لويس الثامن عشر أن يأتيه برأسه ما لبث حين التقى به أن تقدم وتقدم. ثم رمى بسيفه. ورفع قبعته وصاح: عاش الإمبراطور! .. وذهب معه في عناق طويل ... وقبل أن يصل إلى باريس كان الملك قد فر منها، تاركاً جندها والجماهير تخرج للهتاف للإمبراطور ..

وسمع المجتمعون في فيينا بهذه العودة فاهتز بهم قصر شون برون. أزاحوا

خرائطهم واتخذوا قرارين : الأول أن نابليون خارج على القانون ، الثاني تسيير الجيوش مرة أخرى للحرب ! ... كانت فرنسا قد سحقتها الحروب من قبل . لم يبق بها شباب يحارب فجند نابليون حتى الفتيان وخرج بهم للقتال على طريقته التقليدية من ضرب كل خصم لوحده ، ولم يكن قد مضى على هربه من إلبا سوى مائة يوم ! ...

السهول المتموجة جنوبي بروكسل ، والمسماة (واترلو) ، أعطت اسمها للمعركة الفاصلة سنة ١٨١٥ . تفاصيل المعركة ليست بالهامة هنا . لقد هزم الجيش الروسي أولاً بضربة محدودة ، ثم انصرف لقتال الجيش الأوروبي الخليط الذي يقوده ويللنغتون الإنكليزي ...

وفي أشد لحظات المعركة حرجاً . وفيما كان ينتظر نجدة قائده غروشي الذي تأخر ساعات ووصل بدلاً منه الجيش البروسي لنجدة ويللنغتون ... في أشد لحظات المعركة حرجاً سقطت الأمطار الشديدة لتعيق تحرك الجيش ، وفي الوقت نفسه ، فاجأت نابليون الآلام الممزقة في الأحشاء ... كان يعاني منذ فترة من سرطان معوي وراثي ... وتنتابه منه الأزمات التي تفطر الاعصاب ... واختارت الأزمة أن تأتي في هذه اللحظات لتصوب ضربتها التراجيدية ... لزم نابليون خيمته ، ولم يعد باستطاعته تفقد القتال ولا أن يخرج لجنوده كما اعتاد ، ولا أن يتخذ القرار اللازم كما ينبغي له . وانكفأ يعض الوسائد ويتلوى ... كانت مصادفة قررت نتيجة المعركة !

هزم الفرنسيون . واختفى نابليون من ساحة المعركة ليظهر في باريس ، ثم ليستسلم لمصيره الذي انتهى به منفياً إلى جزيرة القديسة هيلانة ! ... وليتلو ذلك خلع تماثيل نابليون من كل مكان . إعدام الجنرالات المخلصين بالرصاص . منح الأوسمة للخونة والعودة للملكية القديمة ....

وبالرغم من أن واترلو لم تكن معركة خارقة من الوجهة الحربية فإنها كانت في حساب السياسات والمصائر من المواقع الانقلابية في التاريخ . إنها لم

تنه الأسطورة النابليونية فقط، ولكن حددت تاريخ ومصائر فرنسا وأوروبا لمدة قرن كامل على الأقل... حتى الحرب العالمية الأولى!.. لولا الأزمة المرضية وضربتها المأسوية ترى ما الذي كان سيجري؟.

برتراند راسل يقول:

لو لم تكن كورسيكا قد تبعت فرنسا قبل قليل من ولادة نابليون ولو لم يكن نابليون فرنسياً لتغير وجه التاريخ.....

أليس هذا بصحيح؟.

كلمة أخيرة

وبعد فماذا رأيت ؟

هل تدخل المصادفة عندك ضمن قوانين الكون والحياة فهي بعض من سره المكنون أم تنشز عنه فاتحة الباب على مصراعيه لحرية التاريخ وفوضاه المريعة ؟

في هذا السؤال الذي يطل في خاطرك «وبراءة الأطفال في عينيه» ، يكمن كل ميتافيزيك الحياة وفلسفتها ، ويكمن السر الإنساني الأعظم !

صدر من سلسلة أوراق من التاريخ

١ ـ بين الادب والتاريخ

٢ ـ المغامرون في التاريخ

٣ ـ من ذكريات الغزو الفرنجي

« وجوه من العهد الصليبي »

٤ ـ المكتشفون في التاريخ

٥ ـ ١٠٠ من معارك الجهاد في الاسلام

٦ ـ العرب في التاريخ

٧ ـ المنسيون في التاريخ

٨ ـ رجال وشياطين

تحت الطبع

١٠ـ قضايا من التاريخ

١١ـ صور اندلسية في التاريخ

الفهرس